

روايات د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي

الرايات السوداء

Black Flags

عبد الرحمن

Dr. Naguib Al Keilany

روايات د. نجيب الكيلاني

من إصداراتنا









دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020222 37718
تليفاكس 0020222393 767
بريد إلكتروني
@gmail.com

Design by Abdul Rahman Magdy

روايات إسلامية

الرايات السوداء

د. نجيب الكيلانى

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

رقم الإيداع: ٢٠٣٢٨/٢٠١٢

الترقيم الدولي:

978-977-255-373-0



الصحوة
ALSAHOH
للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com

[١]

تطلعت «لمياء» عبر النافذة إلى الأفق الغربى، السماء زرقاء صافية توحى بالسلام والأمل العذب، وأكمات النخيل والأشجار الخضراء تبدو أروع ما تكون، وعينا «لمياء» الجميلتان شاردتان، تبحثان عن أمنية بعيدة طال ترقبها لها، وقلبها يخفق فى عنف، كأنما يريد أن يثب من مكانه، وينطلق متخطيًا الزمان والمكان باحثًا عن الأمنية الغالية، ومرت من خلال النافذة نسمة رطبة لامست بشرتها الوردية البضة، وداعبت شعيرات نافرة من تحت شالها الحريرى الأزرق، فملأت «لمياء» رئتيها لأول مرة بنشوة حقيقية. . كانت مندمجة فى جو الأصيل الذهبى، ومناظر الخضرة والصفاء والنسائم الرطبة تسيطر على ذهنها أحلام شجية. . وذكريات. . آه. . لشد ما تشوقت إليه. . إلى زوجها الحبيب «على بن أبى أميمة». . منذ شهور طويلة مريرة وهى لم تره، لعنة الله على الحرب وعلى السياسة، فهما سبب بعده عنها وحرمانها من أجمل لحظات عمرها، و «لمياء» تتذكر الآن كيف أنها كانت تعارض

زوجها على بشدة، ولا تقره على موقفه الصلب تجاه الخليفة «مروان بن محمد» وتجاه خلفاء بنى أمية عمومًا، وكانت لا توافقه على تشيعه للعباسين الثائرين الذين يطاردهم الخليفة وينكل بهم، ويهدر دماءهم. . وكانت معارضتها له تعتمد أساسًا على خطأ فى رأى زوجها أو موقفه، فهى لم تكن تفكر فى ذلك غير تفكيرها فى أنها تحب زوجها، وتتمنى أن يظل إلى جوارها ما أمكنته الظروف، وتنعم بقربه، كانت تعلم فساد الحاكم والوزراء من بنى أمية، لكنها لم تكن تشغل بالها بذلك، ولقد أيأسها سوء الحال من الإصلاح المرتقب، فالطوائف كثيرة:

خوارج وعباسيون، ومصريون ويمنيون، حتى البيت الأموى نفسه منقسم إلى طوائف. . الدنيا كلها صراع وتناحر وقتال ومؤامرات. . أشياء لا تمت إلى الدين بصلة. . فلماذا يزج زوجها «على» بنفسه فى هذا الطوفان الطاغى، ويرمى بنفسه وسط تلك العواصف الهوجاء، وحيث تطيش السهام، وتختلط الحقائق، ولا يعرف الإنسان إزاءها الخطأ من الصواب، ولا العدل من الظلم، ولا الصادق من الكاذب. وكانت لمياء تتساءل بينها وبين نفسها. . لماذا كل هذا العناء؟!

هل من الضرورى أن تنشأ هذه الخلافات، وتراق تلك الدماء الزكية؟!

لماذا ينقسم المسلمون إلى عشرات الطوائف والنحل والمذاهب، وقد كانوا بالأمس أيام الرسول ﷺ وحدة واحدة، تسع العديد من الآراء والأفكار، دون أن تقوم المعارك وتزهق الأرواح؟! لماذا.. لماذا؟! وكانت «لمياء» لا تفسر هذه الأحداث إلا تفسيراً واحداً هو أن الشيطان قد وجد الفرصة سانحة ليسير سيرته الخبيثة في الأرض، ويعود بالناس إلى الوراء.. إلى أيام الجاهلية، ولو صلحت أحوال الناس، وصفت قلوبهم وضمائرهم من الأطماع والجشع والأحقاد لعاد الوئام، وانتشر السلام في ربوع العالم الإسلامي..

وسمعت «لمياء» صوتًا من خلفها، وهو صوت جاريتها الفاتنة «ياسمين» كانت ياسمين تقول:

- «إنها أحلى لحظات العمر يا سيدتي».

- «أية لحظات يا ياسمين؟».

- «لحظات الانتظار..».

- «لكني أشعر بالقلق..».

- «ليس قلقًا يا سيدتي، ولكنها لهفة عارمة على لقاء الحبيب..».

أغضت «لمياء» رأسها في حياء، وابتسمت في خجل، وقالت:

- «أتعتقدين أنه سيعود الليلة؟».

- «بالتأكيد يا سيدتي. . سيدى «على» لا يستطيع الصبر على فراقك أكثر من ذلك، إنّ إيمانه بك وبحبك فوق التصور. .».

تنهدت «لمياء» قائلة:

- «هذا ما يحيرنى، إنى لا أشك فى حب زوجى لى، لكن لماذا ينشغل عنى؟ أحيانًا كثيرة أشعر بالعذاب، أتدرين لماذا؟ لأنى أرى فى تصرفاته علامة خطرة، إنه يحب مبادئه أكثر مما يحبنى. . ويضحى من أجلها بأغلى شىء. . وبحياته. .».

قالت ياسمين وعيناها تتألقان بالسعادة والفخر. .

- «هذا شىء عظيم. . زوجك من حملة المبادئ والرسالات. .».

- «لكنى أريده لى. . لى وحدى. .».

- «حبه لمبادئه لا ينقص من حبه لك. . مبادؤه جزء والرسالات. .».

- «لكنى أريده لى. . لى وحدى. .».

- «حبه لمبادئه لا ينقص من حبه لك. . مبادؤه جزء من شخصيته التى تحبينها، لو كان عاريًا من هذه المبادئ لفتر حبه لك. . قد يكون لرجل المبدأ إغراء آخر يسبى قلوب النساء. .».

قالت «لمياء» فى حدَّة:

- «لكنى - بالنسبة لزوجى- أستبيح الأنانية. . ».

- «ليس أنانية، ولكنه إفراط فى الحب. . ».

- ربما، ومع ذلك فأنا أعتقد أن عليًا منذ أن تزوجنا وهو يفكر فى مبادئه أكثر ما يفكر فىّ وفى ولده «حاتم». .

ولقد أمعن فى الانصراف عنا منذ أن مات أبوه غيلة. . منذ قتله أحد رجال بنى أمية تحت الظلام. . كان زوجى يكره الأمويين بادئ الأمر لخلاف فى الرأى، أما منذ تلك الحادثة، فقد كرههم بسبب الرأى وبسبب اغتيال أبيه، فقد تحول خلاف الرأى إلى حقد أسود. . وعندما ينغمس العربى فى حمأة الحقد بسبب الكرامة أو الشرف- ينسى كل شىء حتى زوجه وأسرته، ولا يذكر إلا السيف والمعركة والدماء. .

واقتربت «ياسمين» من سيدتها، ومالت بوجهها الأشقر الجميل، ثم أراحت خصلة من شعرها الذهبى عن جبهتها، وهمست:

- «أرى أنه ليس هناك شىء مسبب لمخاوفك. . ».

- «لماذا؟».

- «لقد انتهت الحرب، وانتصر سيدى، وسقط حكم بنى أمية، وها هى الرايات السوداء، شعار بنى العباس تخفق فى كل مكان،

معلنة النصر التاريخي الأغر، وبانتهاء الحرب ينتهي العذاب، ويعود الحب والسلام..».

بدا على وجه «لمياء» الأسمر الجميل أنها استراحت لعبارات جاريتها، واقتنعت بمنطقها فهي تشهد بعينيها الرايات السوداء تخفق فوق المباني والأعمدة العالية، وتسمع الطبول تدق فرحًا بانتصار أهل البيت، وتسلم «العباس السفاح» مقاليد الخلافة، والناس جميعًا يتبادلون التهاني، ويلهجون بأغنيات النصر الأغر، مشهد غريب يكاد يذهلها، فهي لم تكن تعتقد أن العباسيين يحظون بهذا التأييد كله، بل كانت ترى أن الثوار ضد الأمويين قلّة، وأنهم يتوارون خيفة الموت والتنكيل، وكان يبدو لها أن غالبية الناس يميلون إلى الأمويين إما خوفًا من سيفهم وبطشهم، أو إيمانًا بهم وبمبادئهم، هكذا كانت «لمياء» تستبعد زوال ملك الأمويين واندحارهم، وتظن أن زوجها وإخوانه الثوار إنما يطرقون حديدًا باردًا، أو يحاولون زحزحة الجبال، وتحقيق المستحيل..

وقالت «لمياء»:

- «عجيب أمر هؤلاء الناس يا ياسمين..».

- «وفيم العجب..؟».

- بالأمس يتحمسون للأمويين ويناصرونهم.. واليوم يلعنونهم

ويعلنون السخط عليهم وعلى سياستهم . . يا له من تضاد غريب!!! وتمتمت «ياسمين»:

- «إنه الخوف يا سيدتى . .».

- «سلوك يبعث على النفور . .».

- «الخوف هو الكارثة . . خوفهم من بنى أمية بالأمس، ومن بنى العباس اليوم . .».

- «وأين الكرامة!!».

- «القوة كل شىء يا سيدتى . .».

- «ولماذا لا يكون الناس أحراراً فى تأييدهم أو معارضتهم؟».

- «الحرية الحقيقية هى التحرر من الخوف . .».

- «لم يكن زوجى يخاف الأمويين، وحمل سيفه ليحاربهم، وكذلك كان أبوه حتى استشهد».

ضحكت «ياسمين»، فقالت «المياء»:

- «لماذا تضحكين؟».

- «ألم أقل لك إن رجل المبادئ قد يكون له إغراء آخر يسبى قلوب النساء»، ولم تعلق «المياء» بغير:

- «أيتها الخبيثة . .».

سيدى «على» يفهم الرجال . . لأنه بطل حر . . الحرية شيء رائع يا سيدتى . . قالت عبارتها الأخيرة فى انفعال ظاهر، حتى كادت الدموع تنفرط من بين أهدابها وأدركت «لمياء» أن جاريتها تقاسى من شعور النقص الذى يلازمها لكونها جارية، و «ياسمين» على رغم المعاملة الطيبة التى تتلقاها، والثقة التى تحظى بها من أهل البيت لا تنسى إنها ضمن الإماء والعبيد، وأنها جارية مشتراه، وهمست لمياء:

- «أنت أخت لى . . حتى مهما كانت صفتك . .».

فاستعادت «ياسمين» هدوءها، وزمت على الكلمات التى بدرت عنها ووشت بما يعتمل فى ذهنها، ثم قالت:

- «هذا شرف عظيم يا سيدتى . . سأظل دائمًا خادمتك المطيعة . . لو جاءنى أبى اليوم، وأكد لى بما لا يدع مجالاً للشك أنى ابنته لأبيت أن أفارقك ولو وزننى بالذهب . .»، وقطع عليهما الخلوة قدوم «حاتم» الصغير الذى لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، كان يحمل سيفًا صغيرًا، ويلبس قلنسوة تشبه قلنسوة الفارس فى الميدان، ويتغنى بأبيات من الشعر القديم، تتحدث عن محنة أهل البيت فى واقعة كربلاء المشهور، ويقول:

بنات زياد فى القصور مصونة

وآل رسول الله فى الفلوات

فعلقت أمة قائلة: لم يعد أهل البيت مشردين، لقد أصبحوا خلفاء وقبضوا على أزمة الأمور، عندما بلغ النافذة التى تجلس إلى جوارها أمه و «ياسمين» قال:

- «لماذا لم يعد أبى حتى الآن؟ ألم يحدد فى رسالة هذا اليوم؟».

قالت أمه: «سيعود يا «حاتم» إن شاء الله..».

وتدخلت «ياسمين» قائلة:

- «لا يخلف أبوك وعده..».

- «حسنًا.. سوف أركب جوادى، وأنطلق فى عرض الطريق لألقاه.».

فتشبثت به أمه قائلة:

- «انتظر يا ولدي.. الشمس أوشكت على الغروب، والليل قادم..».

- «أنا مثل أبى لا أخاف الليل، ما دمت راكبًا جوادى وأحمل سيفى..».

وعادت تنظر إلى الأفق البعيد، وقد احتجب نصف قرص الشمس، ومن بعيد بدت سحابة من غبار، وفى قامتها ظهر فارس لا تبين ملامحه..

وعاد قلب «المياء» يدق من جديد . .

وساد الشحوب وجه ياسمين الجارية . .

وصاح «حاتم» فى مرح :

- «أقسم أنه هو . . لقد عاد . . يحمل رايته السوداء . . ».

●●●

[٢]

الليل قد انتصف أو كاد، و «ياسمين» ملقاة على فراشها لا تشعر بأدنى رغبة فى النوم وأحلامها تجوب شتى الآفاق باحثة عن أى شىء تنتمى إليه، إن انتماءها إلى سيد يملكها لا معنى له، إنه انتماء شكلى لا تؤمن به، ولا تستشعر السعادة إزاءه، أين أبوها؟ وأين أمها؟ بل أين هى فى هذه البلدة الصغيرة؟ امرأة تأكل وتشرب وتنام وتؤدى عملها ولا شىء غير ذلك، وفى النهاية يتقدم بها العمر، وتطبق عليها الشيخوخة كالغول، وتجلس حزينة وحيدة، وتضع أطفال سيدها وأحفادها فى حجرها تغنى لهم وتروى لهم الحكايات والأساطير، ثم تودع الدنيا دون أن تترك عليها بصمة واحدة من بصماتها كإنسانة. . يا لها من حياة تافهة لا معنى لها بل لعلها إلى الموت أقرب. . تحسست «ياسمين» جسدها، ومرت عليه بأناملها. . ومسحت على شعرها الناعم الحريرى الملمس، ثم قبضت يدها على الفراش الوثير الذى تنام عليه، وشعرت بمزيد من المرارة والضيق، أجل. . إن كل شىء بلا معنى. . وتذكرت

«ياسمين» لحظة العودة، عندما أتى سيدها «على بن أبى أميمة» على ظهر جواده الأبلق فى منزله بضاحية الكوفة، كان غبار السفر يغطى شاربه الأسمر، ولحيته الكثة، وبدا سيدها فى عينيها كأروع ما يكون الفارس البطل، بعوده السمهرى، وساعده القوى، وعينيه السوداوين النفاذتين، وتذكرت كيف تاهت عيناها فى نظراته، واختلط الأمر فى ذهنها، وتأججت مشاعرها بحب يائس أبله، تصورت أن سيدها هو حبيبها المنتظر الذى تريد أن تنتمى إليه، واغرورقت عيناها بالدموع، وارتعش كيانها كله، وهمت بأن تلقي بنفسها بين ذراعيه، ولكنها سمعته يقول:

- «آه يا زوجتى الحبيبة.. كاد الشوق يقتلنى..».

وسرعان ما جففت ياسمين دموعها، وثابت إلى رشدها، وصدمتها الحقيقة المرّة الأليمة؛ إن سيدها ليس لها، وإنها مجرد جارية اشتراها بماله، وإن مكانتها لا تعلو على مكان خادم أجير، بل هى أقل من ذلك فالخادم الأجير يستطيع أن يتمرد، أو أن يظهر مشاعره فينفصل عن خدمتهم بإرادته، أما هى فلا شيء اسمه الإرادة.. وتراخت ذراعاها آنذاك وانسحبت إلى مكان قصى فى أبهاء القصر تذرف الدموع الغزار، ولما رأتها سيدتها على هذه الصورة، همست:

- «أتبكين وقد عاد سيدك..».

- «إنها دموع الفرح يا مولاتى . . » .

وجاء مولاها «على» بعد ثوان وقد سمع ما قالته، فربت على ظهرها فى حنان بالغ وأثنى على إخلاصها وولائها، وأبدى تشوقه لسماع غنائها، فقالت «ياسمين»:

- «أنت تعرف يا مولاى أنى لا أجيد الغناء . . » .

- «لكن جمالك يضفى على نبراتك سحرًا رائعًا . . » .

- «هذا تفضل منك . . » .

- «لكنه حقيقة . . ومع ذلك فأنت أعظم جارية فى البلدة تحفظ الشعر والتاريخ، وتألمت من جديد، إن كلمة «جارية» تعذبها دائمًا، ثم إن كونها مجرد حافظة للشعر والتاريخ هو شىء مؤلم، يعنى أنها مجرد وعاء، ليس هناك شىء من ابتكارها وإنشائها، ليست أصلية فى شىء اللهم إلا تمييزها بالجمال الجسدى، وهذه ميزة لا فضل لها فيها، وفى الوقت نفسه تشعر بأن هذا الجمال مجرد تحفة أو لوحة فنان للتمتع والنظر، جمال بلا حب أشبه ما يكون بالجثث المحنطة، ومرة أخرى إن كل شىء بلا معنى . . إنه العذاب والضياع . .

وأخذت ياسمين تتقلب فى فراشها، وهى تشعر دائمًا أنها فى حاجة ملحة للبكاء وتريد أن تجرى وتصيح، وتمزق أى شىء

بأظافرها، ليتها تستطيع أن تفعل كما فعل سيدها وتلقى بنفسها فى معامع الحروب، إذن لنفَّثت عن كروبها وأمانيها المكبوتة والطاقات العمياء التى تسكن عقلها وجسدها، لكنها للأسف مجرد جارية، ليس لها حرية تخطيط حياتها ومصيرها، ولا تعرف غير السمع والطاعة، وهى تشارك فى الحياة ولكنها تؤدى دورها وكأنها فى حجرة زجاجية ضيقة، محدودة الحركات.. إنها كالسجينة أو سجينة فعلاً.. إنّ صورة مولاها «على» الفارس البطل ما زالت تلح على خاطرها، إنه الآن إلى جوار زوجه. يبثها نجواه وحنينه، وينعمان بأحلى لحظات العمر بعد فراق طويل، لقد تم اللقاء بعد البعاد، أما ياسمين فهى تشعر أنها على سفر دائم، وفى حب دائم عن حبيب لا يعود، وستظل فى عذاب وسفر وانتظار دون أن تجد زوجها؛ شقاءها وهناءها، إنه الضياع الأبدى الذى لا نهاية له.

وانسكب فى قلبها يأس مرير، وصرخت:

- «يجب أن تتحطم الدمية.. لكن للأسف لن يحطمنى أحد.. ومع ذلك فإن الأمر الوحيد الذى أملك فيه حرية الاختيار هو أن أقتل نفسى، فالبقاء فى هذه الحياة المظلمة المغلقة حماقة ليس لها ما يبررها..».

سمعت «ياسمين» ضربات على الباب، فتوترت أعصابها، وهبت واقفة كمن لدغته حية، أيمكن أن تصدق الأحلام؟ أيكون

سيدها قد شعر بما تقاسيه من لوعة وحب، وأنّ شفافية روحه قد استجابت لنداء روحها، فأتى متسللاً فى غفلة من زوجه.. ليبثها هواه، ويملأ حياتها بالأمل والحب والنشوة؟ يا لها من معجزة! ووثبت إلى باب الحجرة، وعالجته برفق، وهتف والظلام يغرق كل شيء حولها.

- «مولاى..».

- «حبيبتى..».

صرخت ياسمين كمجنونة:

- «مَنْ؟».

- «أنا عبدك.. «ميمون»..».

- ودفعت الباب فى وجهه مهتاجة وهى تقول:

- «اذهب.. لعنة الله عليك يا عبد السوء..».

وكان ميمون الأسمر عبداً حبشيًا يعمل فى خدمة مولاه «على»، ويهتم ببستان بيته، ويشرف على أغنامه وبهائمه ومزروعاته، وكثيراً ما كان يلاحق ياسمين بغرامه، ويقذف وجهها بعبارات الإعجاب دون أن يرجع بنجاح يذكر، اللهم إلا شتائمها اللاذعة، وسخرياتها المريرة منه، وتهديده بإفشاء أمره وإخباره سيده بسلوكه الشائن.. وكأنما سقطت ياسمين من سماء وردية الأحلام إلى

أرض صخرية قاسية وهى تستمع إلى صوت ميمون، وإلى وجهه الفاحم كالليل الدامس، ولم ينصرف ميمون وقد صفقت الباب، بل ظل متسمراً أمامه، وهمس:

- «مولاى يسترق لحظات الهناء، ونحن نتعذب، لماذا لا ننعم مثله يا ياسمين؟ لماذا؟».

فقالت بصوت يحشرجه البكاء:

- «اغرب عن وجهى أيها السافل..».

- «نحن من معدن واحد».

- «لكنك صفيق..».

- «أنا أحبك..».

- «وأنا أكرهك..».

- «هذا لا يهم. نستطيع أن نقضى أوقاتًا طيبة..».

- «تستطيع أن تقضيها وسط البهائم فى الحظيرة..».

- «لماذا لا ترحمين؟».

فقالت «ياسمين» فى حدة:

- «إذا بقيت فسأصرخ وأجمع أهل البيت كله.. ومعنى ذلك أن يشوى ظهرك بالكرباج حتى تنفق كالحمار..».

ولم تعد تسمع شيئًا بعدها، عاد الظلام والسكون، وعادت الأفكار السوداء، لم يزل جسدها ينتفض من الغيظ ومن خيبة الأمل التى صدمت أحلامها، وندمت لأنها لم تنشب أظفارها فى جسد الملعون «ميمون» فقد بدا فى ذهنها صورة مجسمة لتعاسة حظها، وضياع أمانيها، وحاولت أن تنام- لكن يدًا غليظة تدق الباب الخارجى ما أشد ما تشعر بالمقت والضيق! إنها تريد الوحدة والصمت، وبعد لحظات عاد ميمون وقال بصوت أجش:

- «يجب أن تخرجى فورًا..».

- «لن أخرج..».

- «أبو لؤلؤة الشاعر صديق سيدى يريد شرابًا..».

- «أهذا وقت مناسب للزيارة؟».

- «علينا السمع والطاعة، نحن لا نناقش هذه الأمور..».

تنهدت فى غيظ، ثم قالت:

- «ولماذا لا تذهب وتوقظ «وعد»؟».

وكانت وعد جارية أخرى بمنزل مولاها، لا تجيد سوى فنون الطهى، ضخمة الجثة، مترهلة، على جانب غير قليل من البلاهة..

فرد «ميمون» متذمرًا:

- «هذا ليس من اختصاصها . . » .

فقامت «ياسمين» من فراشها متثاقلة ، وقالت فى نبرات حزينة :

- «إنى قادمة» .

كان «أبو لؤلؤة» شاعرًا من الدرجة الرابعة أو الخامسة ، بل إن الكثيرين لا يؤمنون بشاعريته ، وهو من أصدقاء مولاها «علىّ» لا عمل له ، يعيش عالة على أصدقائه وعلى من ينشد فيهم أشعاره ممتدحًا ، أو على الرشاوى التى تقدم إليه كى لا يتناول أحد الرجال بلسانه الهجاء ، وشعره الركيك ، وعلى قدر دمامة وجهه كان قبح شعره المسف ، ولم تكن «ياسمين» ترتاح إليه ، ولا إلى نظراته الجائعة الشرهة ، ومن ثم دخلت حجرة الضيوف ، وقد تحالف عليها الغيظ والارتباك والخوف ، وقدمت له الشراب بيد مرتجفة ، فأخذ يدندن :

أصلى فلا أدرى إذا ما ذكرتها

اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا

فقالت «ياسمين» فى غضب ، محاولة أن تغلق باب الحديث فى وجهه ، وتحرقه بسياط السخرية حتى يرعوى :

- «ليس من شعرك ، ولهذا فهو يبدو آية فى الروعة والجمال . . » .

فقال ونظراته النارية مسددة إلى وجهها: «تعالى إلى جوارى، وستسمعين أروع منه أقول ارتجالاً . . » .

- «ليس هذا وقت السمر . . » .

قال وهو يدق الأرض بحذائه الضخم المتسخ:

- «إنك تنسين دائمًا كيف تكون معاملة الجوارى للسادة . . » .

- «ليس لى سيد سوى مولاى «على بن أبى أميمة» . . » .

- «تصرفك هذا لن يرضيه . . » .

- رفعت إليه وجهه فى تحدّ وقالت:

«ماذا تريد منى؟» .

- «ليس هذا من شأنك . . عليك الطاعة دون مناقشة . . » .

- «لكنى إنسانة . . وأنت لم تبتاعنى بمالك . . » .

وأدرك أن جفاف منطقه، وقسوة تصرفه، وأن ما أقدم عليه ليس مدخلاً سليمًا إلى قلبها، ولا يمكن أن يكون الحب بالقسوة والعنوة، فقال مترفقًا:

- «أوه يا «ياسمين» . . لشد ما تؤلمنى كلماتك الجارحة!! لتنسى أننى شاعر مرموق وأنك مجرد جارية . . عند الحب يتساوى البشر، وفى الحب يتحول السادة إلى عبيد، والعبيد إلى سادة، إنه جنون لا

منطق له، فلتغفرى لى هفواتى وتعالى إلى جوارى لنشرب معًا..».

كان فى رقته أبعد ما يكون عن روحها، وأشد ما يكون قبحًا فى نظرها، وتمنت فى هذه اللحظات أن تبصق فى وجهه، وأرادت أن تجرب التعبير الحقيقى عن مشاعرها دون زيف أو جبن ولو مرة واحدة فى حياتها، فاقتربت منه وقالت فى إصرار:

- «لن أجلس إلى جوارك أو أشاركك الشراب..».

- «لماذا؟».

- «لأنى أمقتك..».

وفرت هاربة، وأسرع «أبو لؤلؤة» يقذفها بكأس فارغة لم تدركها، كانت أنفاسه لاهثة، والعرق يتصبب على جبينه وعلى عنقه السمين، وبعد لحظات وثبت إلى ذهنه صورة «وعد» البلهاء، وصفق مستدعيًا العبد «ميمون» وطلب منه استدعاء «وعد» على عجل، فقال «ميمون»:

- «لكنها نائمة، وغطيطها ينبعث عاليًا، ولو سمعها مولاى لأزعجه هذا الغطيط..».

- فصرخ فى حدة:

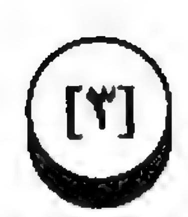
- «ألا تعرفنى؟ افعل ما أمرتك به..».

وجاءت «وعد» تتعثر فى خطواتها، وتغالب النوم، وعلى ثغرها ابتسامة بلهاء..

ولم يجد «ميمون» مناصًا من أن ينصرف، وكله مقت وكراهية لهذا الشاعر السمج الثقيل الظل، فقد كان «أبو لؤلؤة» فى نظره مجرد متسول لا أكثر، وأنه يتزى بزى الأدباء والشعراء، وينهج منهجهم فى السلوك العام، ولكن هل يستطيع ميمون أن يصرح برأيه هذا أمام «أبى لؤلؤة» أو أمام مولاه أو مولاته؟

إنه لا يستطيع فليس له سوى أن يعمل ويطيع.

●●●



في صبيحة اليوم التالى هبط «على» الدرج فى خطوات وئيدة، كانت قلنسوته نظيفة شفافة، وعباءته تنسدل فوق كتفيه يطرزها وشى فارسى مذهب، وفى قدميه حذاء أحمر جديد، وحول خصره حزام حريرى مثبت فيه خنجر مغمود.

وبدت لحيته سمراء مهذبة، وشاربه محنونًا منسقًا وارتسمت على ثغره ابتسامة عذبة تنبض بالحب والثقة والهدوء، وعلى جانبى الطريق من الدرج حتى بستان القصر كانت تهانى الخدم والرقيق وتحياتهم تتسابق إلى سمعه فى نبرات وقور كلها إجلال واحترام، وتقدمت منه «ياسمين» وقد ارتدت أروع ما لديها من أثواب حريرية وحلى وجواهر وأتمت زينتها على صورة لافتة للنظر، وتعطرت بعطور نفّاذة أخّاذة، وألقت تحية الصباح فرد «على» قائلاً:

- «تبدين كالياسمينة حقبتة يا جاريتى الجميلة».

فأغضت رأسها قائلة:

- «هذا يوم عيد يا مولاى».

- «أشكر لك هذا الولاء الفذ..».

ومضى إلى البستان تلاحقه نظراتها الوالهة، كانت تفكر فى أن الاستيلاء على قلب مثل هذا الفارس أعظم بكثير من الاستيلاء على عاصمة بنى أمية، وانتمائها إليه يفوق ألف مرة من انتمائها إلى أبيها وأمها وموطنها الأصلى، آه لو أحبها «على» لأصبح هو كل عالمها ودنياها وأهلها، ولذابت كل أحزانها وعذابها، ولم تستطع «يا سمين» الاستطراد فى أحلامها فقد سمعت صوتًا من خلفها يهمس:

- «لماذا تقفين هكذا يا «يا سمين»..».

وسادها الخوف والارتباك وتمتمت فى خجل:

- «لاشىء.. لا شىء بالمرة».

ولم تستطع «يا سمين» أن ترفع عينيها إلى وجه مولاتها «لمياء»، بل سددت نظراتها صوب الأرض، وشعور بالإثم يسيطر عليها، لقد أدركت أنها تخون سيدتها، وتحاول جاهدة أن تخطف منها رجلها، و«لمياء» زوجة، و«ياسمين» مجرد جارية مشتراة والفرق بين الاثنتين شاسع جدًا «فياسمين» ظالمة بالتأكيد، وتحاول أن تتخطى كأنثى، وتنال منزلة لاتستحقها، إن لسيدها الحق فى أن يتعامل معها كيفما شاء لأنه يمتلكها، لا لأنه يحبها، وأخذت «لمياء»

ترمق جاريتها بعين فاحصة فيها شك كبير، وصاحت مولاتها:

- «انظرى إلىّ جيدًا».

فرمقت ياسمين عينيها فى ذلة وضراعة:

- «أعرف ما يعتمل فى رأسك الخبيث».

فقالت وقد تبللت عيناها:

- «لا أفهم شيئًا يا مولاتى».

قالت «المياء» فى غيظ:

- «لمَ هذا التأنق كله؟ وما هذه الزينة؟ ثم لماذا هذا الشرود؟ إن عيبكن أيتها الإماء أن تفسرن الرحمة والعطف تفسيرًا خاطئًا، يبدو أن السوط هو الوسيلة الوحيدة التى تفهمينها.. فصاحت «ياسمين» فى رعب:

- «سيدتى».

- «لا أسمح بهذا العبث».

- «لم أقصد سوء».

- «أنت تكذبين».

- «مستحيل».

- «فكيف أفسر ما أراه أمامى الآن؟».

جففت «ياسمين» دموعها، وتمالكت أعصابها، وهتفت فى نبرة حزينة:

- «إن أمرًا ما يكربنى وكنت على وشك أن أفشيه لسيدى لكنى خائفة، أقسم أن إخلاصى لكم لا يدانيه إخلاص أية جارية من الجوارى».

وجثت «ياسمين» على الأرض، محاولة تقبيل حذاء سيدتها فتباعدت سيدتها قليلاً، ثم أمسكت بيدها وأوقفتها، وأخذت تسألها عما يكربها، وأسعفتها بديهتها ورسمت لها طريق الخلاص، لقد أخذت ياسمين تشرح لمولاتها كيف أن الشاعر «أبو لؤلؤة» يطاردها ويحاول الاعتداء على شرفها، ويأتى إليها تحت جنح الليل، مستغلاً صداقته لمولاها، والثقة والعطف المسبوغين عليه، طالبًا منها أشياء يأباها الضمير والتقاليد.

استراحت «المياء» لما سمعت، وأخذت شكوكها تذوب رويدًا رويدًا، وامتلأ قلبها بالسكينة والرضى، وافتر ثغرها عن ابتسامة عذبة، وهمست فى ود:

- «هونى عليك يا عزيزتى.. ما قصدت إيذاءك أو النيل من إخلاصك لكنها غيرة النساء فأنت تعلمين كم طال شوقى وحرمانى، وتدركين مدى أنانيتى بالنسبة لزوجى..».

فقالت «ياسمين»:

- «ليس من حقى الاعتراض على أى شىء، أنت مولاتى وأنا جاريتك المخلصة، ولكن أمر «أبى لؤلؤة» يضايقنى».

- «لو أراد «أبو لؤلؤة» الزواج منك لما مانع سيدك. . إنه يحب هذا المأفون العربيد برغم انحرافه، ولعله نوع من العطف أو الإحسان».

قالت «ياسمين» فى انزعاج:

- «لكن زواجى منه هو الموت بعينه».

- «إنه سيد حر. . وشاعر يجيد الهجاء».

وآلمتها هذه الملاحظة التى تغمز حريتها ووضعها، فقالت:

- «لكنى لا أميل إليه».

- «لماذا».

- «أنت تعرفين، ليس فيه ما يغرى أية أنثى».

- «لكن «وعد» تعشه عشقًا».

- «وعد من فصيلته. . ».

- «لكنه لا يحب إلاك».

- «إن الحياة فى كنف رجل متعطل عار من كل فضيلة، ليست

حياة على الإطلاق . . أفضل أن أعيش هنا بلا رجل طول حياتى ولا أقترن به . . الرحمة . . الرحمة يا سيدتى . . » .

وعادت «لمياء» تضحك من جديد، لقد وجدت فى الأمر طرافة تدعو إلى الضحك، لذلك لم تفضِ إلى أعماق المأساة التى تعيشها جاريتها، أو تأخذها مأخذ الجد، لكنها أرادت رضاءها وقالت :

- لا تخافى «ياسمين» لن نرغمك على شىء تمقتينه، ثم إن الأمر مجرد دعابة لا أكثر، ولسوف أحادث مولاك «عليًا» فى الأمر، وأنا واثقة أنه قادر على وقف مضايقات «أبو لؤلؤة» .

فاختطفت «ياسمين» يد سيدتها . . وأشبعتها لثمًا وتقبيلاً وهى تقول :

- «ليس لى إلا أنتم . . أستحلفك بحبك لسيدى الكبير ولسيدى «حاتم الصغير» أن تنقذينى من «أبى لؤلؤة» . . » .

- «هذا لك . . أعدك بذلك» .

•••

ومضت «لمياء» إلى البستان، ورائحة البنفسج والورد تنطلق فى الردهات والمسارب وتملأ الجو بعبير حلو، و«على» زوجها يجلس فوق أريكة مريحة تشع منه الهيبة والوقار و «وعد» تهرول حاملة أطباق الحلوى وأقداح القهوة، و «ميمون» العبد الحبشى يجمع

بعض الورد والأزهار ذات الألوان البهيجة ليقدمها لسيده، كل شيء من حولها يوحي بالحب والاستقرار والنعيم.

جلست «لمياء» إلى جوار زوجها، وكلامها يفيض بالسعادة وكل ملامحها تنطق بشرًا، وكل شيء حولها يغني ويبتسم. . والحياة جميلة فاتنة، حيث لا حرب ولا فراق ولا آلام. ومن آن لآخر تنظر «ياسمين» إلى الأريكة التي تحفها الأزهار والأغصان الخضراء، وتتطلع إلى «علي» و«لمياء» وهما يأويان تحت الظل، وتنعكس عليهما ظلال فاتنة، وكأنهما طائران هاربان إلى جنة غنّاء، فيكتوي قلبها بنار قاسية لا ترحم.

●●●

عندما وضعت «وعد» الطعام أمام سيدها، والتفت إليها ضاحكًا وقال:

– «كيف حالك يا «وعد»؟».

– «الحمد لله، شهيتي للطعام جيدة، وصناعتي لأصنافه أجود. . كنت أنتظر سيدي على أحر من الجمر، كنت طول غيبة مولاي أحاول جاهدة أن أبتكر وأتفنن في الطبخ. .».

قال مولاها متخابثًا:

– «ألم يحاول «أبو لؤلؤة» أن يصرفك عن رسالتك. .».

مالت برأسها فى خجل، وقد توردت وجنتاها الممتلئتان، وتمتمت:

- «سيدى».

- «أعرف أنك تحبينه».

ولما لم تجب، التفت إلى زوجه قائلاً:

- «لكم يضحكنى يا «لمياء» أن أتخيلها وقد تزوجا، ترى أى طفل ينجبانه؟! لو تجمع فيه البلاهة والقبح والعربدة، وكل نقائص أبيه وأمه..».

- فرت «وعد» هاربة.. كانت خائفة، ولم تخف أمارات الرعب التى ارتسمت عليها وجهها، ولكن أحدًا لم يشغل نفسه بهذا الأمر، إذ سرعان ما عاد «على» إلى زوجه يبثها هواه وشوقه، وفجأة انتصبت واقفة وقالت:

- «لن أتهاون معك بعد اليوم».

- «ولِمَ تفكرين فى الغد؟».

- «لأنى أخافه.. تجربتى معه قاسية مريرة».

- هونى عليك.. وعيشى اللحظة التى أنت فيها فصمتت برهة ثم عادت تقول:

- «يجب أن تعتزل الحرب والسياسة».

- «هذه أمور لا تصح مناقشتها».

- «لماذا؟».

- لأنها مرهونة بظروفها.

- «وأنا أريد أن أعرف مصيرى . . إننى زوجتك وأم ولدك، ومستقبلنا العائلى لا يقل أهمية عن مستقبل الدولة».

فقال فى شىء من الضيق :

- «دعى هذا الأمر، وتعالى إلى جوارى . . لا أريد أن أفكر فى مثل هذا الأمر الآن، لقد مللتها فعلاً، ولم يعد يشغل ذهنى سوى أمر واحد . . ».

فقالت فى سعادة :

- «هذا الأمر هو أنا بالطبع . . »

فظل شارداً وأخذ يقول وقد اربدّ وجهه :

- «قاتل أبى . . يجب أن أثأر منه، إنه القصاص العادل . . ».

انفجرت الكلمات الحاقدة فى وجهها كما ينفجر الرعب فى رؤيا سوداء، وتاهت نظراتها عبر الدوحات الخضراء المتكاثفة .

●●●



وأفاقت من أحلامها على حقيقة بشعة تهدد أمنها وسعادتها، ها قد عاد زوجها وكأنه لم يعد، إنه يفكر فى الثأر والانتقام، وعادت تنظر إليه بعين دامعة:

- «لماذا تصر على عذابى يا «على» . . ».

- «إنه القدر يا «لمياء» . . ماذا يقول الناس عنى حين يعلمون أنى تهاونت مع مَنْ قتل أبى غيلة؟».

- «أبوك مات فى معركة، وما أكثر الشهداء! وعندما تنتهى الحرب ينتهى كل شىء، الثأر مسألة فردية، فأنتم كنتم تخوضون حربًا عامة شاملة قلبت كيان الأمة وراحت دولة بكل آثامها وجاءت دولة جديدة، وفى مثل هذه الأمور والمعارك الكبرى لا يكون هناك ثأر لرجل مات فى المعركة . . ».

- «لكنهم قتلوه غيلة».

- «من أجل مبادئه، ولأنه ثائر يا عزيزى، ولم يكن من أجل نزاع عائلى، أو شقاق بسبب العرض أو الكرامة».

الأفق يفوح عطرًا، والعصافير تزقزق فى أروقة البستان، وعناقيد العنب تتدلى مغرية جميلة، و«على» شارد فى أحلامه الدموية، وزوجه تجلس ذاهلة عن كل ما حولها، و«أبو لؤلؤة» يقطع عليهما خلوتهما، ويصيح من بعيد ووجهه القبيح ينطق بالبشر:

- «مرحبًا برفيق الصبا والشباب».

ويتعانقان...

وأبو لؤلؤة يترنم بشعره الركيك الذى يهجو به بنى أمية المنهزمين، ويهتف بأبيات أخرى يمجد فيها انتصار العباسيين، وبطولة «أبى مسلم الخراسانى» قائد جيوشهم، ويمدح فيه صديقه الفارس المغوار «على بن أبى أميمة» وفى أثناء تلك المظاهرة الحماسية بين الصديقين انتقلت «لمياء» عائدة إلى القصر، تثقل قلبها الهموم والأحزان.

واضطجع الصديقان تحت الأغصان الخضراء، وأخذا يتبادلان الحديث عن المعركة الكبرى وعن آلاف الضحايا الذين قتلوا، وعن قادة الجيش الأموى الذين شردوا أو قتلوا أو أودعوا السجن، وعن الرايات السوداء التى تخفق فى الآفاق فى أرض فارس والشام ومصر والحجاز والعراق.

وأخيراً قال «أبو لؤلؤة» :

- «ما كنت أحلم بهذا النصر الساحق» .

- «ولم لا؟ إن سياسة بنى أمية كانت تحمل فى طياتها عناصر فنائها، كانت هناك مظاهر وهيبة وصولجان، ولكنها كانت جوفاء وترتكز على أسس خربة متعفنة، فلم يكن غريبًا أن ينهار حكمهم تحت ضربات سيوفنا . . ثم لا تنس أن العباسيين من أهل البيت» .

وهز «أبو لؤلؤة» رأسه متصنعًا الحكمة وقال :

- «لقد نصركم الله، لأنكم كنتم تحملون مبادئ الإسلام الحقيقية . . » .

وانشقت الأغصان المدلاة عن «المياء» التى عادت وهدرت قائلة :

- «لا تتحدثا عن الإسلام» .

فرد زوجها فى استغراب :

- «لماذا؟ ! » .

- «أنتم لا تعرفونه» .

- «لا شك أنك تمزحين» .

- «من قال إن الإسلام يبيح للمسلم أن يهدر دم أخيه المسلم؟ وهل فى الإسلام أن تحيلوه من دعوة بر ورحمة وأخوة إلى حرب

طاحنة، وصراع من أجل الحكم، ومن أجل انتصار العصبيات الجامحة؟!».

ها أنتم ترون الناس شيعة وخوارج ويمنيين ومصريين وعباسيين وأمويين وعرب وفرس، والخلافات دامية بين كل هذه الطوائف، ولن تجف الدماء.. مستحيل أن تجف، وأنتم تقولون المبادئ الإسلامية، وأعداؤكم يقولون المبادئ الإسلامة، تسمون حروبكم القاسية المدمرة بالجهاد المقدس وهم يفعلون مثلكم.. أين وجه الحقيقة؟ مَنْ صاحب الحق؟ وما الطريق السليم الذى يعود عليكم بالخير؟ ابحثوا عن هذا كله».

واقتربت من زوجها قائلة:

- «وأنت؟ هل بحثك عن قاتل أبيك جهاد فى سبيل الله؟ تكلم..»، وانفجر ضاحكًا، فقاطعته قائلة:

- «أريد جوابًا.. إننى أتعذب!!».

- «إنه عدالة لا شك فى ذلك.. القاتل يجب أن يقتل..».

- «هناك ولى للأمر.. الحاكم هو الذى ينظر القضية ويصدر أحكامه..».

فقال فى شىء من الضيق:

- «لنبحث أولاً عن القاتل».

- «لن أتركك تفعل . . » .

- «وهل فى مقدور امرأة مثلك أن تفرض رأيها علىّ . . ؟! إن بنى أمية لم يفعلوها» .

- «لكنى زوجتك . . » .

- «أحرى بك إذن أن ترعى حقوق الزوجية . . هناك أمور لا دخل للنساء فيها . . » .

- «لكنى أبيت الليالى أتعذب وأذرف الدموع» .

قال فى سخرية :

- «مسكينة» .

كان «أبو لؤلؤة» يشهد الحوار الحار بينهما فى حـ رة ، ولعله تضايق من تدخل «لمياء» فى جلسته الهادئة كما تضايقت هى من قبل لقدومه ، ولم يخف عليه أن الخلاف الناشب ناتج عن إصرار « على» على البحث عن قاتل أبيه والانتقام منه ، وعجب الشاعر لهـ ـه الثورة التى ليس لها ما يبررها ، ماذا لو أقدم «على» على الثار لأبيه؟ إنها مسألة لا شذوذ فيها ، والناس يموتون بالآلاف كل يوم ، والسهام تطيش فتقتل عديداً من الأبرياء ، والوشاية قد تتسبب فى إعدام قوم لا جريرة لهم لا تهامهم بممالاة بنى أمية ومشايعتهم ، لهذا تدخل «أبو لؤلؤة» قائلاً :

- «هذه مسألة تافهة . . » .

فصرخت فى وجهه :

- «لأنك بلا زوجة وبلا أولاد . . لا تجارب ، ومن ثم فإن حكمك على هذه الأمور لا يؤبه له . . » .

وكانت هذه الكلمات كفيلة بأن تثير حنق الشاعر ، وتؤذى مشاعره ، ولكنه ليس ممن يثورون بسرعة ، ولا يتحرجون من سماع مثل تلك الكلمات الجارحة ، وضج «على» بالضحك وهو يستمع لسخرية زوجه المريرة ، ثم التفت إلى الشاعر قائلاً :

- «وما قولك يا ذا اللسان الطويل . . » .

فحك «أبو لؤلؤة» شعر لحيته النافر وتمتم . .

- «الحقيقة أنها صادقة فى كل ما قالت . . » .

- «إنها الهزيمة التى لا تقل عاراً عن هزيمة بنى أمية . . » .

- «لكنى مع أهل البيت» .

وأطرق صامتًا ثم قال :

- «أريد زوجة وأولادًا . . عند ذلك أفكر فى الأمر من جديد ، لعلى أعترض على تصرفاتك يا «ابن أبى أميمة» . . » .

لم تستطع «لمياء» أن تدارى ضحكتها هذه المرة؛ لأن الطريقة التى يتحدث بها الشاعر، والحركات التى يقوم بها، دفعتها إلى الضحك دفعًا، ثم واصل «أبو لؤلؤة» حديثه قائلاً:

- «عيبى الوحيد أننى شاعر لا يعرف الناس مكانته اللائقة به.. هنا تكمن مأساتى. أتدرون لماذا كرهت بنى أمية؟ أنا لا أكذب عليكم ولماذا أكذب؟ ليس لى زوجة ولا أولاد فممن أخاف؟ كرهت بنى أمية لأن أحدًا من أمرائهم سخر من مديحى له واتهمنى فى شرفى؛ أعنى شعرى، وقذف فى وجهى بكوب ماء، وعدت يومها إلى البيت أجّر قدمىّ جرًا خائبًا بلا منحة.. يومها أيقنت أنهم أغبياء وأن سلطاتهم قائم على الظلم والجهل».

ثم ضرب على فخذ «ابن أبى أميمة» قائلاً:

- «والآن جاء دورك يا بطل».

- «إنى أقوم بدورى منذ سنين.. أترانى قصرت فى حقك؟».

- «لا سمح الله.. إنك فارس من فرسان بنى العباس.. وباب الخليفة مفتوح لك، فلا أقل من أن تفتح لى الطريق أمام شعرى.. لقد جاء عصره».

وقطع حديثه فجاة ونظر عبر الممشى الذى يمتد بين القصر ووسط البستان وهتف فى سعادة:

- «أقبلت «وعد» وصحفة الطعام على يديها. . هذه الخبيثة البلهاء هى الوحيدة التى تفهمنى وتعرف من أنا».

وقال «على» ضاحكًا: «لأنها بلهاء».

ونسى «أبو لؤلؤة» المشكلة التى آثارتها «لمياء»، ولم يعد يذكر العشر وباب الخليفة العباسى والمنح الذى يقذفونها على الشعراء، ونظر إلى «وعد» فى افتتان، ثم انزلق ببصره إلى صحفة الطعام وهرش لحيته قائلاً:

- «لم أذق طعامًا منذ أمس».

وتركه «على» يلتهم ما فى الأطباق، وأخذ يفكر فيما قالته زوجه، لقد نسى التفكير المرتب العميق منذ أن اندمج فى المعارك الحربية، ولكن الحرب انتهت ولم يعد هنا مبرر للأحكام السريعة المبتورة وعدم التمحيص فى الأمور، أجل إن رجال بنى أمية كانوا يتشبثون بالمبادئ، ودعاة العباسيين يتوسلون بالمبادئ، والحق ضائع وسط الغبار والسيوف المشرعة والدماء التى تسيل، والناس ينحازون إلى هؤلاء وأولئك ويحترقون ويموتون، ويأتى خليفة ويموت خليفة وتتغير الوجوه، لكن نظام الحياة ونسقها لا يتغير، المؤامرات دائرة، والخلافات قائمة، والحياة كما هى لا جديد فيها سوى الوجوه والملبس والشعارات، والتفت «على» إلى زوجه قائلاً:

- «لكن ظلم بنى أمية لم يكن يحتاج إلى دليل . . » .

- «ربما . . » .

- «وأهل البيت هما الورثة الشرعيون للخلافة . . » .

- «ربما . . » .

- «وأنا حاربت من أجل ذلك ، ولم يتزعزع إيمانى ، وأبى كان كذلك» .

- «أنا لا أغمز فى إيمانك ولا مبادئك» .

- «بل تحاولين التقليل من شأن جهادى والتشكيك فيه . . » .

فقالت فى رقة :

- «إنى أريدك فى بيتك . . » .

- «وضريبة المبادئ . . ضريبة الحياة الحرة . . من يدفعها؟» .

- «لقد أديت واجبك . هذا يكفى . . » .

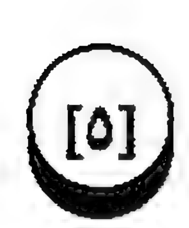
- فصاح الشاعر والطعام يملأ فيه :

- «دعا هذه الأمور ، لقد صدعتما رأسى وأفسدتما لحظات الطعام السعيدة . . » ، وعاد الصمت من جديد ، ولم يعد يسمع غير صوت الشاعر وهو يلوك الطعام فى فيه ، ثم همس «على» فى حزن «مات أبى ميتة بشعة . . إنّ ترك قاتله عار وأى عار ! ! » .

وعلى مقربة من باب القصر كان ميمون يدفع «وعد» ويلكزها في غلظة وهو يغمغم :

- «لماذا تقفين هنا أيتها الحمقاء؟ أنت مجرد جثة ثقيلة الظل ، أتظنين أنّ أحداً يهتم بك؟ اغربى لا غربت عليك شمس اليوم . . » .

●●●



- «كلنا عبيد» . .

هذا ما قالته «ياسمين» لنفسها وهى تستعيد ما مر بها منذ أن جاء مولاها ، أجل العبودية قدر كل البشر الذين تعرفهم ، فـ«أبو لؤلؤة» عبد لهواه ونزواته . وسيدها «على بن أبى أميمة» عبد لمبادئه وللتقاليد التى عاش فى ظلها ، وكذلك مولاتها «لمياء» أمة طيِّعة لأحلامها فى الحب والاستئثار بزوجها ، وفى النهاية الجميع عبيد لله . . كانت «ياسمين» تشعر ببعض الاطمئنان وهى تسكب هذه الأفكار فى وحدتها ، فقد آلمتها أشد الألم أن تتفوق عليها سيدتها وتستأثر بحسن الطالع ، وتنعم بذلك النعيم وهى لا تختلف عنها فى شىء ، إن «ياسمين» أجمل من سيدتها ، وأكثر إلمامًا بالشعر والتاريخ ، وأدرى منها بشئون البيت ، فـ«ياسمين» امرأة كاملة أو شبه كاملة ولا يعيبها إلا كونها جارية مشتراة ، ومملوكة لامرأة من جنسها ، ومع ذلك فقد أخذت تفكر فى سمة العبودية التى يلتصق

بالناس جميعًا وإن تفاوتت صفاتها ونوعيتها . . وكان الليل فى بدايته، والسيد الكبير يأوى إلى حجرة نومه مع زوجه، والجميع يتحركون بحساب دون أن تصدر عن أحد بادرة من ضجيج أو فوضى، لكن همهمة مفاجئة أخذت تنبعث من جنبات القصر الكبير، وخطوات تروح وتجىء، وجاء «ميمون» ليقول :

- «أما زلت هنا؟» .

قالت «ياسمين» فى ضيق :

- «وما شأنك؟» .

- «مولاتى تعانى من حمى قاسية . . أسرعى» .

وثبت «ياسمين» من سريرها، وقصدت لتوها إلى حجرة سيدتها، ووجدتها ممددة فى فراشها محتقنة الوجه، وجبينها يتصبب عرقًا، وعيناها مغمضتان، ووجدتها تهذى بكلمات كثيرة بعضها مفهوم والبعض الآخر وهو الأغلب غير مفهوم، وكان مولاها «على» يقف عاجزًا، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الحزن العميق، واقتربت «ياسمين» من سيدتها ولامست جبينها .

فهتفت قائلة فى ذعر :

- «إنها الحمى، لكأن فى رأسها أتون يغلى . . » .

- «وماذا نفعل؟» .

قالها «على» فى انفعال وقلق، فردت «ياسمين» . .

- «حسنًا . . تستطيع أن تمس جبينها بالماء البارد، وتضع خرقًا مبللة، فقد يطفئ حراراتها . . » .

قال وهو يدق الأرض :

- «هذا لا يكفى . . إنى قلق . . مستحيل أن يختطفها الموت . . ونحن نقف هكذا عاجزين» .

وفكرت «ياسمين» ، ثم قالت :

- «إن ضمادات الماء البارد مفيدة جداً . . » .

- «يجب أن نفكر فى حل آخر . . » .

- «سيدى . . أعرف رجلاً فى أقصى البلدة من الطرف الشرقى يشتغل بالكيمياء . . واستخلاص بعض العقاقير من نباتات غريبة . . والناس يزعمون أن لديه دواء لكل داء، فلِمَ لا نستعين به؟» .

قال دون أن يزايله بأسه :

- «افعلى ما تريدين . . الشافى هو الله . . سأجلس إلى جوارها وأقرأ بضع آيات القرآن حتى يعود الطبيب الذى تتحدثين عنه» .

- «يقولون إنه ماهر، وأن لديه كتبًا ترجمها عن حكماء اليونان والهند والفرس، من يدرى؟ قد يكتب الله على يديه الشفاء . . » .

وظلت «لمياء» فى شبه غيبوبة لأسبوع كامل، قاسى فيه «على» أكثر ما قاسى فى ميدان القتال، وكان ولده «حاتم» يبكى البكاء، وهو يرى أمه ترقد ساكنة، وقد حال لون بشرتها إلى شحوب مخيف، وغارت عيناها، وبدا عليها هزال ملحوظ، ومن آن لآخر يجلسونها ويدفعون إلى جوفها بجرعة من الدواء المر الذى صنعه طبيب البلدة، فكانت تتقيأ فى أغلب الأحيان، و«ياسمين» إلى جوارها تعد الضمادات الباردة وتحاول أن تجرعها الدواء والمشروبات السكرية وعصير الفواكه . .

وفى اللحظات التى تفيق فيها «لمياء» وما أقلها، تصدر عنها تأوهات أليمة، تذرف الدموع غزاراً، وتقع فريسة لنوبات قاسية من السعال الذى يهز جسدها هزاً . .

وذات مساء كان «على» يجلس إلى جوارها وقد أنهكه السهر والقلق، وبدا الإرهاق فى عينيه وكانت «ياسمين» تجلس على حافة سرير سيدتها تمرضها وترعاها، كان «على» ينظر إلى «ياسمين» وهى منهمكة فى عملها دون أن تشكو أو تتألم، ويعجب لوفرة النشاط الذى يتبدى فى سلوكها ويقظتها، وينظر إلى وجهها الأشقر الذى يشع منه الصفار والصبر والإخلاص، وحانت منها التفاتة إليه، فوجدته يدقق النظر إليها، ولم تفهم لماذا أسرع وحوّل بصره عنها، وقالت «ياسمين» :

- «أرى أنه يجب أن تستريح. .».

- «أتظنين أنه فى إمكانى أن أنعم بالراحة وهى على هذه الحالة من السوء؟».

- «لكنك لا تنام إلا غراراً ويبدو أنك نسيت وجباتك فلم تعد تتناول من الطعام إلا أقله، إن هذا يدفع بك إلى السقم. .».

- «أشكرك. .».

ثم قام معتزمًا الذهاب إلى حجرة أخرى لعله يحظى ببضع ساعات من النوم، وما أن ألقى بجسده على السرير حتى سمع وقع خطوات، ودفعت «ياسمين» الباب فى هدوء وقدمت إليه بعض الطعام.

وحاول أن يعتذر، لكنها ألحت عليه فى أن يأكل، وحاولت جاهدة أن ترفه عنه، وأن تبعث فى قلبه الأمل بقرب شفاء مولاتها، وأظهرت «ياسمين» قلقًا بالغًا على صحة مولاها وانصرافه عن الطعام والنوم، كان لحديثها نغمة حلوة شجية فى أذنيه، وكان لمنظرها وهى فى ثيابها المنسقة المحبوكة أثر عميق فى نفسه، لشد ما يميل قلبه لهذه الجارية، وتهفو روحه إليها، إنه يملكها لكنه لم يفكر مرة واحدة فى أن ينال كل حقوقه -كمالك يمينها- إذ لا رغبة له فى النساء بعد زوجه الجميل، «لمياء» تملأ حياته سعادة وحبًا، ولا تريد لامرأة غيرها كائنة ما كانت -أن تشاركها فى زوجها، وهو

منصرف عن كل هذا العناء بمعاركه وأسفاره، ولا يستسيغ أن يشغل أكثر من فراش واحد.

وزوجه فى الحجرة المجاورة ترقد سقيمة، تشعل جسدها الحمى، ويتدفق من ثغرها الهذيان دون سبب ظاهر، ترى أى داء حل بجسدها؟ هل لبسته الشياطين؟ هل عصت الله فأراد أن يمسح خطاياها؟ لكنها الزوجة!! صبرت وأخلصت وتحملت غربته ومضايقاته.. الله وحده يعلم.

- «خذ هذه من يدى..».

وفتح عينيه ليرى «ياسمين» تقدم له «حمامة محشوة»، ومن معصمها الجميل ينبعث بريق الحلى الذهبية، وفى عينيها تتوهج رغبة لا تقاوم.

وأقدم على فعل لم يقدم عليه طول حياته، بل لم يفكر فيه من قبل أبدًا، وقالت «ياسمين» وهى تغادر الحجرة بعد ساعة:

- «هذه أعذب لحظات عمرى».

- «لكنها حماقة ما كان يجب أن تحدث».

- «يا لروعة هذه الحماقة، لكن اسمح لى يا سيدى أن أسألك هل حدث ما يشين دينك أو شرفك؟ إننى جاريتك، وأقسم أننى لم أهب لك نفسى لهذا الشعور وحده.. إن حبى لك فوق طاقة أية

أنثى . . سيدى . . دعنى أقبل يدك إنه لفخر كبير لجارية مثلى أن تنال هذا الشرف» .

صاح «على» فى غيظ :

- «اذهبى حالاً . . إنها تتوجع فى الحجرة المجاورة . . أية خيانة ! !» .

- «ولماذا تسمى الحق المشروع خيانة؟» .

- «دعى الحقوق الآن . . لا تتحدثى عنها . . إن ما أشعر به هو احتقار عميق لنفسى ولتصرفاتى الحمقاء . .» .

قالت «ياسمين» وقد أطرقت برأسها أسفًا :

- «إنك تأبى إلا أن تعكر صفو أجمل ليلة فى حياتى . . طالما شغلنى حبك . .» .

- «اخرسى يا فاجرة . .»

وانسابت الدموع على خديها فى صمت ، إن اللعنة الأبدية تلاحقها ، لا يمكن أن تنسى أنها جارية . . أمة مشتراة . . وحتى لو نسيت ذلك فإن من يعيش بينهم لا يستطيع نسيانه ، كل واحد منهم يعرف ثروته ، وهى جزء من هذه الثروة والأغنام والبهائم وأشجار الفاكهة والعقار والضيعة الواسعة التى تنتج القمح والشعير والبلح ، وأخذ توهج مشاعرها . . بسبب اللحظات التى مضت يخبو رويداً

رويداً، وأظلمت فى عينيها مشاهد الذكرى الحلوة، لكن سيدها عاد يضمها إلى صدره فى حنان ونسيت أنها أمة اشتراها بماله.

نسيت كل المواصفات والتقاليد والفوارق الاجتماعية، ولم تعد تذكر إلا أنها مع حبيبها الذى حلمت به، ولكن مولاها يبدو الآن على حقيقته، ويذكرها بمأساتها الخالدة، ويأبى أن يتركها تعيش فى عالم الوهم الذى خلقته لحظات جنون جسدى ويحطم الحلم الجميل.

وعادت «ياسمين» تقول:

- «سيدى... إنى أعتذر.. ما كان يحب أن أنسى من أكون..».

فرد عليها فى جفاف:

- «لا أريد أن يعرف أحد ما حدث..».

- «سمعًا وطاعة..».

- «وخاصة مولاتك لمياء..».

- «أمرك يا سيدى..».

- «وإشاعة الأمر معناه...».

فقاطعته وهى تنتفض من نوبة البكاء التى داهمتها:

- «أعرف . . . أعرف يا مولاى . . ».

وتنحنح ثم قال :

- «والآن تستطيعين أن تنصرفى . . الزمى حجرتك حتى الصباح ولتستقبلى اليوم الجديد غدًا ، وكأن شيئًا لم يحدث ، مفهوم ! !».

- «كن مطمئنًا يا مولاى . . ».

كانت هذه الكلمات تنغرس فى قلبها كالمدى الحادة ، وكان شعورها بالضياع وخيبة الأمل . . أبشع منه الآن عن أى وقت مضى ، وأخذت تتسلل إلى حجرتها واجفة ، وكأنها ذاهبة لساحة الإعدام ، لم يعد هناك أمل أن تجد مرفأ تأوى إليه ، إن عذابها النفسى سيظل إلى الأبد ؛ لأنها ستبقى إلى الأبد أيضًا جارية يقدر ثمنها بالدنانير ، ولا يعرف قيمتها إلا النخاسون . .

●●●

وفى اليوم التالى تماثلت «لمياء» للشفاء ، واستطاعت أن تجلس فى سريرها وأن تتناول بعض الحساء ، وابتسمت وتكلمت لأول مرة منذ أن هاجمها الداء ، وآلمها أن ترى زوجها على حالة من الإرهاق والتوتر لا تسر ، فقالت فى حزن :

- «لقد تسببت لك فى متاعب جمة . . ».

- «لا شيء يهم . . إن شفاءك قد أذهب عنى كل التعب . . » .

- «سامحنى . . . » .

ورفع إليها عينيه فى استغراب :

- «لماذا؟» .

- «لقد أزعجتك بمرضى . . » . ،

- «كان يجب أن تقضى فترة استجمام سعيدة بعد الحرب . . » .

فشردت نظراته ، وهز رأسه ذاهلاً ، وأخذ يتمتم :

- «إنها إرادة الله . . » .

كان يفكر فيما حدث بالأمس مع «ياسمين» ، طافت برأسه ذكرى أيام المعارك الدامية ، لقد كانت أيامًا عصيبة فعلاً ، وكل محارب يحمل روحه فى كفه ، ومع ذلك فقد كانت أرحم من الليلة الفائتة التى قضاها معذبًا مسهَّدًا ، لقد استطاعت زوجه أن تنتظره شهوراً طويلة تعانى الحرمان واللهفة إلى لقائه ، وانتظرت فى صبر ، أما هو فلم يستطع أن يقاوم نزوات جسده أسبوعًا واحدًا ، فاستسلم لأول إغراء صادفه ، وفى حجرة مجاورة لحجرة المرأة الفاضلة . . زوجه . .

وهمست زوجه :

- «أين «ياسمين» ؟» .

فخفق قلبه، وسرى الشحوب فى وجهه، لكن زوجه لم تلحظ شيئًا، فقال :

- «فى حجرتها . . كانت متعبة بعض الشىء لطول السهر . . » .

قالت زوجته فى ابتسامة رائعة :

- «ما أخلص هذه الفتاة ! ! كنت أراها فى فترات إفاقتى فألحظ الحب والوفاء يتجليان فى نظراتها . . إنها أمينة تستحق كل خير . . » .

وهز «على» رأسه :

- «أجل . . كل خير . . » .

●●●



شعرت «ياسمين» بكراهية مفرطة نحو سيدها، لقد فسرت سلوكه على هواها فاتهمته بالجبن والتردد، وضايقها أن هذا الرجل الذى يندفع إلى الميدان ويقتل دون خوف، لم تستطع إرادته أن تبعث فيه القوة والشجاعة ليعبر عن حقيقة مشاعره ليقول لها إنى أحبك يا جاريتى الجميلة، لم يستطع قولها.

لقد خاف.. أيًا كان سبب هذا الخوف، قد يكون خوفه من زوجه ذات الشخصية الآسرة، قد يكون مبعث هذا الخوف التقاليد المتوارثة، أو ربما نبع من شعور دينى خفى غير موضح المعالم والسمات، إنه يخاف، هذا هو كل ما فهمته، ولم تستطع «ياسمين» البحث عن أى تفسير آخر، وكانت تحس بمرارة قاتلة إزاء تصرفه، وستظل مشاعرها حبيسة، وستظل هى الأخرى رهينة هذا القصر لا تعرف الحب الحقيقى الذى ينشده قلبها، يا لها من زهرة وحيدة، لا يستمتع بمرآها أحد، ولا يشم أريجها أى إنسان!!.

والكارثة الكبرى أن «عليًا» أخذ يتجنب الحديث معها، ويتعمد عـدم الالتـقـاء والانفـراد بهـا، فلم يكن ينادى إلا على «وعـد» و«ميمون»، وشعرت «ياسمين» بجرح قاتل، واستبد بها قلق لم تحسه من قبل، وهى عاجزة عن أن تتغلب على قلقها وجرحها، لو كانت حرة لأمكنها أن تفثأ نار غيظها المكبوت وتصرخ فى وجه سيدها متهمة إياه بكل صفات الخسة والنذالة..

ومرت الأيام بطيئة متعثرة، «لمياء» تماثلت للشفاء، واستعادت نشاطها ورونقها و«على بن أبى أميمة» نسى الحادثة أو كاد، و«أبو لؤلؤة» يطل عليهم بوجهه القبيح وشعره الركيك مساء وصباحًا، ولا يكف عن مطاردة «ياسـمـين»، ونصب الشـرك «لوعـد»، و«ميمون» يتحرق غيظًا وحنقًا، لكنه لا يستطيع أن يقدم على أى تصرف إيجابى بالنسبة لما يشغل ذهنه، و«حاتم الصغير» يملأ القصر ضجيجًا وسعادة، ويهرب من معلميه إلى جواده وسيفه ويطلق العنان حول القصر، وعبر الطرقات فى ضيعة أبيه الكبيرة.

وأقبل «على» على زوجه بشغف وحب بالغ، يتعاطر معها رحيق النشوة والمتعة، ومن آن لآخر تطل الذكرى الأليمة ذكرى الليلة السوداء بوجهها المعربد، فيندم ويحاول الهرب إلى أحضان زوجه، وفى بعض الأحيان يتذكر مأساة أبيه، وقتله غيلة على يدى رجل أموى ظالم، فيقشعر بدنه ويتخيل دماءه تنزف حارة دافعة، ويتصور أن أباه قد صرخ

فى رعب مستنجداً ولده حفاظًا على حياته، عندئذ يقشعر بدن «على»، ويشعر بما يشبه الجمرات تزهق روحه وطمأنينة نفسه، فيقسم على الأخذ بثأره مهما كلفه ذلك من ثمن ومهما طال الزمن.

لكن الدنيا كلها فى قلق وثورة، والدماء لم تجف، والمفاجآت تحدث كل يوم، وصور القلق السياسى تنعكس على نفوس الناس فتزيد من عذابهم وأحزانهم، ويجد «على» وحده ذات أصيل شاحب فى بستان القصر، وزوجه لم تكن معه، فقد ذهبت إلى بيت أبيها فى زيارة تستغرق ثلاثة أيام، ووعد منشغلة بأمور الطعام وفى مطبخها.

وقدمت «ياسمين» عبر الأشجار المتكاثفة الخضراء، كانت تسير فى تؤدة، ورآها «على» فاضطرب، وخجل من نفسه لهذا الاضطراب المباغت، فلماذا يشعر بمثل هذا القلق كلما رآها وخاصة عندما تكون زوجه غائبة؟ يجب ألا ينسى أنه سيد هذا القصر وأن «ياسمين» جاريته لا أكثر، وتمالك أعصابه، واعتصم بشجاعته التى ألفتها أيام الحروب.. واغتصب ابتسامة باهتة محاولاً التعبير عن عدم المبالاة، وظل فى مكانه متصنعًا الهدوء، فاقتربت منه وهمست:

- «سيدى..».

- «خيراً يا «ياسمين»..».

- «لماذا الجفاء يا مولاى؟ ألست جاريتك؟».

فاقترب منها وأمسك بكتفها النحيل وأخذ يهزها قائلاً:

- «أيتها الخبيثة.. تريدين أن تهدمى بيتى، وتلوثينه بالشك والريبة؟».

ثم صرخ فيها قائلاً:

- «ابتعدى عنى.. ابتعدى..».

وانصرفت «ياسمين» لأعمالها منكسة الرأس بائسة.. كانت «ياسمين» إلى وقت قريب ترى أن الحب أروع ما فى الحياة، كانت تنظر إلى سيدها «على» على أنه المثال الأعظم للحب..

لكنها الآن بعد صده لها كفرت بهذه النظرية، فقد أدركت بعد التجربة المريرة أن الحرية أروع ما فى الحياة، ولو كانت حرة لانتقمت لشرفها وكبريائها، ولأعطت لمولاها درسًا لن ينساه، بل لعلها كانت تحتقره، وتدعه يهرول وراءها ناشدًا رضاها عليه..

●●●



واندفع «على» خارجًا . .

وإحساس خفى بالذنب يخالط روحه، لأول مرة فى حياته يرفض حقوقًا له ويشعر بامتعاض وضيق إزاء استغلال هذه الحقوق المفروضة عليه، ولأول مرة يشعر أن زوجه -وهى الأنثى الضعيفة- لها عليه سلطان لا يستطيع الفكاك منه، وهو الفارس العملاق، وأمور ما كانت تخطر له على بال.

ودعا عبده «ميمون» فأتى مسرعًا، وطلب منه أن يعد له جواده ويخرجه من حظيرته ويتأكد أنه تناول طعامه وشرابه، ولم يتوان «ميمون» عن تنفيذ ما أمر به سيده، وأمسك «ميمون» بعنان الجواد، بينما همّ سيده بالركوب، وبدا على العبد شىء من الارتباك وهو يتمتم:

- «ماذا يكون جزائى لو أخفيت عن سيدى شيئًا يدور فى القصر؟».

- «الكرباج أيها الغبى . . » .

فعاد «ميمون» يقول :

- يبدو أن شاعرنا «أبو لؤلؤة» يريد الزواج من «وعد» . . .
فأعطاه مولاه أذنًا مصغية وانتباهًا أكثر وقال :

- «أنا لا أفهمك . . ماذا تريد أن تقول؟» .

- «الشاعر يريد «وعد» لنفسه . . » .

- «لكنى لا أريد أن أبيعها ، ثم أن الشاعر لا يملك ثمنها . . » .

- «لكنه مضطر إلى ذلك يا مولاى . . » .

- «لماذا يا عبد السوء؟» .

- «لأن الزواج يبدو وكأنه تم فعلاً . . ووعد تنتظر مولودها بعد خمسة أو أربعة شهور . . » .

فصاح «على» وقد اربد وجهه :

- «أيها الأبلة . . » .

- «وما ذنبى يا مولاى؟ .

- «أتقول «وعد»؟» .

- «أجل . . إنما هى . . » .

- « و«ياسمين» ؟» .

- «لا تعرف شيئًا عن هذا الأمر . . إنها مشغولة يا سيدى . .» .

- «بماذا؟» .

- «فبان الارتباك على وجه «ميمون» ، ارتعشت مفاصله» .

- «لا أدرى . . أقسم لا أدرى . . ولم أر شيئًا . .» . .

وأيقن «على» أن عبده «ميمون» يعلم سر «ياسمين» هى الأخرى ، وأحنقه هذا الأمر غاية الحنق ، وتمنى فى هذه اللحظة أن يستل سيفه ويهوى به على عنق العبد ، بل راودته فكرة دموية رهيبة وهو أن ينقض على جنس العبيد والإماء فى بيته ويستقيهم كأس الموت دون رحمة .

لكن «عليًا» تمالك أعصابه ، وصاح :

- «اقترب منى أيها السفيه . .» .

واقترب «ميمون» والخوف يكاد يقتله ، وكلمات الاستعطاف والتوسل تتناثر من بين شفتيه السوداوين الغليظتين ، وأمسك سيده بأذنه بين الإبهام والسبابة ، وضغط عليها فى قسوة وقال :

- «لو شاع الأمر ، أو وصل إلى مسامع سيدة القصر فلن يكون هناك عقوبة سوى سفك دمك أيها الوغد . .» .

ودفعه بعيداً عنه، وصرخ فيه:

- «اذهب وعد «بوعد» الآن. . ».

ووقف ينتظر والضيق يأخذ بنفسه كل مأخذ، والعالم فى نظره ضيق كئيب، وسيفه إلى جواره فى غمده لا يحل أى مشكلة من المشكلات العويصة المستحدثة، وبدا قصره فى نظره كبؤرة من فساد، لا سمة من سمات الطهارة والعفة فيه، لم يبق فيه سوى زوجه الطاهرة النقية، كل شىء قد تلوث ما عداها. . لكنه يجب ألا يفقد الأمل فى الله، آه. . لقد نسى الله وهو يظن أنه يحارب فى سبيله، ويقضى على الظلم والفساد، ويحيى المعانى الإسلامية الكبرى التى صنعت هذه الحضارة الضخمة وذلك العالم الجديد. . أجل لقد نسى الله، ماذا يفعل؟؟ وكيف ينجو بنفسه من هذا العذاب؟؟

ولم يستطع الاستطراد فى أحلامه، فقد قطع عليه أفكاره صوت يتردد خلفه:

- «طاب صباحك يا بطل الأبطال».

فأدار رأسه، ونظر. . ثم قال فى نبرة حزينة:

- «أبو لؤلؤة».

- «نعم أبيت جائعًا. . مشتاقًا. . ومعى قصيدة جديدة. .

وأطال «على» النظر إلى تقاطيع وجهه، وبدا أقبح من أى وقت مضى، وأقبل «ميمون» ومعه «وعد» فى هذه اللحظة، وكم كان عجيبًا أن ينفجر «على» ضاحكًا، ويقول:

- «لقد قررت أمرًا . .».

ولما لم يجب أحد، استطرد قائلاً:

- «لسوف تتزوج «وعد» يا «أبا لؤلؤة» . .».

فقال الرجل فى استغراب:

- «أتزوجها؟».

- «أجل . . . الآن . . .».

- «لا شك أنك تمزح . .».

- «لماذا؟؟».

- «لأنها لا تناسبنى إطلاقًا . .».

- «لكنك تحبها، وهى تحبك . .».

- «مستحيل . .».

- «هناك دليل قاطع على ما أقول يا «أبا لؤلؤة . .»،

- «ما هو؟».

فقال «على» مشيراً إلى «وعد» التى سيطر عليها الخوف والارتباك:

- «انظر.. انظر جيداً إلى بطنها».

فأدرك «أبو لؤلؤة» الأمر بكل نواحيه وملابساته، فتمتم:

- «لكنى لا أملك شيئًا..».

- «وأنا قد وهبتها لك يا شاعرنا الـ... العظيم..».

- «ومن أين أطعمها؟ أنا رجل لا أصلح للزواج..» فقال «على» ساخراً:

- «لماذا لم تقل لنفسك هذا الكلام من قبل؟ لماذا أبحتها لنفسك وقضيت معها اللحظات الهانئة، ما زلت أكرر وأقول إن هذا الوجه القبيح، وتلك البلاهة المفرطة، سوف تنجب أطفالاً يصلحون للمتاحف..».

وقهقه من جديد...

ثم هدر وهو يلكز جواده منطلقًا كالسهم:

- «لقد أمرت.. خذها معك.. هيا.. وتستطيع «وعد» أن تأخذ معها بعض الطعام والشراب.. أهذا يرضيك؟».

كان الطريق قفراً موحشًا، و«على» فوق متن جواده يسابق

الريح، وكلما حاول الجواد أن يتباطأ أو يستريح قليلاً وكزه بعنف، وكأن «عليًا» ما يزال مصرًا على أن يهرب من كل ما يربطه بقصره من آلام ومشكلات، لكن أساه لا يفارقه.

ونبتت فى رأسه فكرة نغصت عليه مشاعره، إن موقف «وعد» مشابه إلى حد ما لموقف «ياسمين»، إن وضع «ياسمين» مباح من الوجه الشرعية، فلماذا يقسو عليها تلك القسوة ويتهاون هذا التهاون الغريب مع وعد وشاعرها القبيح؟!

من يدرى ربما كان عطفه على «وعد» تعبير ملتو عن ألمه لما تتعرض له «ياسمين» من عنف وقسوة لشد ما تضطرب الحقائق، وتعمى البديهات، وتعتم الأفكار فى هذه الأيام العصيبة.

ونظر «على» إلى بعيد..

كانت الرايات السوداء.. شعار بنى العباس.. تخفق على المبانى والأشجار وأعمدة الطرقات..

لقد اقترب من موطن صهره.. وبعد قليل سيلتقى به، وبزوجه الحبيبة الطاهرة «لمياء».

●●●



كان اللقاء بين «على» وصهره الشيخ «عبد الله» لقاء حاراً، مشحوناً بعبارات الترحيب والشوق، فقد باعدت بينهما المعارك الناشبة فترة طويلة من الزمن، وكان الشيخ عبد الله يكن «لعلى» تقديراً وعطفاً ظاهرين، وكان «على» بدوره ينظر إلى حميه بعين التوقير والإجلال فقد كان عالماً حافظاً للحديث والتفسير والفقه واللغة.

إنه لم يكن يضاهى «عليّا» ثراءً، وكان هناك خلاف فكرى بين الاثنين، لكنه لا يمنع من توثيق عرى الألفة، ونمو مشاعر الحب بينهما، وكان هذا الخلاف الفكرى واضحاً فى حديثهما تلك الليلة؛ إذ قال الشيخ «عبد الله»:

- «أنا لا أقر سفك الدماء على هذه الصورة».

فرد عليه «علىّ» قائلاً:

- «لكنها ضرورة أوجدتها الظروف القاسية، فلكى نصل إلى الاستقرار لابد من التضحيات، ولابد من العنف الدموى..».

فقال الشيخ فى ألم:

- «مستحيل أن يؤدى العنف وسفك الدم إلى الاستقرار المنشود، إن أبا العباس الخليفة قد أطلق يد قواده ورجاله، وخاصة «أبو مسلم الخراسانى»، فمثلوا بالمسلمين أبشع تمثيل، إن دم المسلم حرام.. وإذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار.. لأن كلاً منهما يحرص على قتل صاحبه..

فقال «على» باسمًا:

- «أكنت تعتقد أن القضاء على بنى أمية، وإنهاء مظالمهم يتم دون إراقة دم؟».

ثم لا تنس أنهم بدءوا سطور المأساة الدموية.

ألم يقتلوا؟ ألم يضطهدوا؟

ألم يدوسوا المعانى الإنسانية والإسلامية؟

قال الشيخ فى انفعال:

- «أنا لا أدافع عن بنى أمية..».

- «أتؤيد إذن بنى العباس..».

- «كلا يا ولدى . . فأنا ضد العنف وسفك الدماء . . ثم أتريد الحق؟ . . ».

- «بالطبع لا أنشد سواه . . ».

- «إذن فخذها صريحة . . كلكم على ضلال . . فأنا لا أقر ما يحدث سواء فى عهد الأمويين أو العباسيين . . ولا يوصى الدين ولا الشرع أن يصل الخلفاء إلى أريكة الحكم بالقوة والقهر والوعيد، فالبيعة يا ولدى تؤخذ عنوة . . والحرية الحقيقية مفقودة . . وأصحاب المصلحة الحقيقية لا يجدوا الفرصة للتعبير عن رأيهم، ولا يمكنهم الاختيار النزيه . .

ولهذا أستطيع القول بأن الحكم للقوة . . واسم الدين يُستَغَلُّ استغلالاً سيئًا . .

فقال «على» معترضًا :

- «بل الحكم للمبادئ . . ».

- «هذا ما يقال فى بداية الثورة، ثم ينقلب الأمر، وتصبح القوة هى الحكم والفيصل . . ».

- «لكن المبادئ تنتصر بالقوة والسلاح . . وهذا أمر لا مفر منه . . ».

- «المبادئ كما أراها الآن مجرد أهواء، لا تستند على واقع من ديننا».

- «هل قال الإسلام إن الأقوياء يحكمون أن الصالحون لحمل الأمانة هم الأجدر..؟».

لم يرتح «على» لكلام الشيخ؛ لأن ما يسمعه يجعل جهاده إثمًا كبيرًا ولهذا قال:

- «إن أهل البيت أحق الناس بالخلافة».

- «لماذا؟».

- «لأنهم أهل البيت».

- «إنه تبرير يحمل أكثر من معنى، أفهم من ذلك أن الكفاءة محصورة فى فئة واحدة من الناس، مستحيل أن يكون الأمر هكذا، فأهل البيت لهم شرفهم ومكانتهم العظيمة، وهذا يعنى انحصار الصلاحية والكفاءة فيهم.. هم بشر وفيهم من يصيب ومن يخطئ».

«عمومية الإسلام وشموله، وإذابة الفوارق بين الألوان والأجناس، كل هذا يجعل من الدين أول حامل حقيقى لراية المساواة، فالمسلمون كما يقول الرسول ﷺ: «تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم.. وهم يد على من سواهم».. إن فكرة

حصر الأمانة فى بيت من البيوتات مخالفة صريحة لما أؤمن به من مبادئ ديننا الحنيف . . » .

فى بداية الحديث و«على» لا يرتاح كثيراً لما يتفوه به صهره من آراء ، وكيف يسوى الشيخ بين أهل البيت وغيرهم؟ إن احتضانهم للدعوة الإسلامية ، وقيام الرسول بينهم ، وتبجيل القرآن لهم ، وجهادهم المقدس فى حمل الدعوة ونشرها ، وجعلهم أولى الناس بتولى الأمور ، واستعدادهم الشخصى ، وتربيتهم الخاصة تجعلهم أطيب العناصر للقيام بهذا الأمر دون غيرهم ، لكن ما يقوله الشيخ يتفق كثيراً من وجهة نظر الخوارج ، وهو رأى أقل ما يعاقب به من جرأته هو الإعدام ، فقد كان «على» يعتبر هذه الآراء مجرد أحاديث خاصة لا يمكن أن يقولها صهره على الملأ ، ولا يصح أن تؤخذ مأخذ الجد ؛ لأنها تتنافى تمامًا مع الأسس الدستورية للدولة الجديدة ، من أجل هذه الأسس قامت الحرب ، وسفكت : دماء ، وقضى على بنى أمية وقامت دولة بنى «العباس» وقال «على» :

– «لك رأيك ، وإن كنت لا أقرك عليه» .

– «أتنكر يا ولدى أن الحرب التى قامت لم تكن سوى صراع بين بيتين من البيوتات العربية الكبيرة؟» .

– «هذا هو ظاهرها ، لكنها فى الحقيقة صراع بين وجهتى نظر إحداهما خاطئة بالتأكيد» .

- «لا أرى هذا الرأى».

- «وما دليلك؟».

- «لم يحدث أدنى تغيير..».

- «التغيير لا يأتى طفرة..».

- «لكن له إرهاصات وعلامات..».

- «أنا أدركها..».

قال الشيخ:

- «أما أنا فعاجز عن إدراك ذلك».

- «لأنك بعيد عن الأحداث، ولأن رأيك السابق بالنسبة للنظام كله رأى خطير.. أنت غير راض عن بنى أمية، ولم تظهر العطف على مركز العباسبن هل أفهم من ذلك أنك توافق «الخوارج»؟ وعلى رأيهم؟!».

تنهد الشيخ قائلاً:

- «أنا لا أؤيد حزبًا دون الآخر، إن ما يشغل بالى ليس الخوارج أو العباسيين أو الأمويين، لا أفكر إلا فى التعاليم والمبادئ الإسلامية التى تمثلتها وعشتها.. افهمنى؟ إن أمتنا واحدة.. وأصول ديننا قوية ثابتة لا تتغير، ووحدة الأمة يجب أن تكون فوق

الأحزاب والآراء وأطماع البيوت الكبيرة. . يا ولدى إن ما تشهده فى هذه الأيام هو إضرار صريح بمصالح العباد، ومناقضة واضحة لتعاليم الدين، ورجوع بالبشرية إلى الوراء برغم مظاهر التفوق المادى والحضارى. . هذا رأى لا أحيد عنه، وإن كنت لا أجد الشجاعة الكافية لنشره بين الناس. . ».

ودخلت «المياء» باسمة، كانت سعيدة لمقدم زوجها، سعيدة لوجودها معه بقرب أمها وأبيها، وقال فى مداعبة:

- «لا شىء سوى حديث الحرب والسياسة، إن هذه الأمور قد ملها الناس، فلتبحثا عن موضوع آخر. . ».

- قال «على» معلقًا:

- «يبدو أنك تتفقين مع أبيك فى آرائه السياسية. . لقد كان تأثيرى كزوج أقل شأنًا من تأثيره على سلوكك وآرائك. . ».

- «اختلاف الرأى لا يفسد بيننا علاقات المحبة. . ».

- «بل أخاف أن تنشب بيننا الحرب. . ».

- «لسنا أمويين ولا خوارج ولا. . . ».

- «كلمات أبيك نفسها. . . ».

- «إن صفاء النفس يا زوجى يفرض السلام فرضًا. . » وتدخل أبوها قائلاً:

- «الحمد لله . . » .

وأردف «على» :

- «لا يكره السلام إلا الشواذ والمنحرفون، وما خضنا الحرب إلا مضطرين . . » .

وأرادت «لمياء» أن تسترضى زوجها فقالت :

- «البادئ أظلم . . وقد بدأ بنو أمية بسفك الدماء لمجرد الخلاف فى الرأى» .

- «أنت منصفة . . » .

فرد الشيخ «عبد الله» :

- «وأنا؟» .

- «عفواً . . لكنك غير راض عن الجميع . . » .

- «وأنا أحب الجميع . . » .

- «حتى بنى أمية . . » .

- «ولم لا؟» .

أمسكت لمياء بيد زوجها فى رقة وقالت :

- «الطعام جاهز . . وأراكما جائعين . . » .

وتبعها «على» صامتًا، وبعد لحظات قال:

- تزوجت «وعد».

فوقفت وقد هزها الخبر وقالت:

- «ممن؟».

- «تزوجها أبو «لؤلؤة..».

- «لكنه كان يريد «ياسمين»..».

- «مستحيل».

- «وما وجه الاستحالة..».

فأدرك أنه تورط، وأن حدته قد تكشف عن شيء من نواياه، فاستدرك قائلاً:

- «لأن علاقة خبيثة نبتت بينه وبين «وعد» منذ أمد، كنا غافلين عن طيش هذا الرجل، وبلاهة جاريتنا.. كان لابد أن يتزوجها ولم يكن هناك حل آخر..».

وعما قريب ستسعد «وعد» بطفل، ونظرت «لمياء» إلى زوجها فى استغراب وقال:

- «أتعنى ما تقول حقًا؟».

- «بالتأكيد..».

- «أمر غريب».

- «يجب أن يظل الأمر على الكتمان، وكنت عل وشك أن أطرد هذا الشاعر بعد أن أصفعه على وجهه القبيح، لكنى تداركنا الأمر ورأيت من الحكمة عتقها وتزويجها منه..».

تنهدت «المياء» قائلة:

- «هؤلاء الجوارى والإماء متعبات إلى أبعد حد.. كان يجب أن تسلخ جلدها وتلهب جسدها الخاطئ بالسياط.. هذه البلهاء..».

تمتم «على» فى أسف:

- «كنت أتمنى أن نستغنى عن الجوارى الشابات بعجائز، العجائز يتقنَّ الخدمة، وليست بهن مطامع دنيوية، ولا نزوات جسدية..».

إن إماءنا وجوارينا مجرد خادمات.. وليس بهن رغبة استمتاع أخرى، فما رأيك؟.

- «دعى هذا الأمر الآن..».

- «لماذا؟ أتشعر بالضيق؟».

- «أنا جائع.. هذا كل ما فى الأمر..».

وطوال جلوسه على المائدة كانت تعاوده ذكرى أبيه، وأخذ يستعيد أحداث المأساة سطرًا سطرًا، المأساة التى خاضها رحل خائن فى منطقة الحيرة، كان يهرب إليها من عذاب نفسه ومشكلات بيته، كما يهرب اليائس الضائع إلى ميدان قتال محاولاً أن ينسى فى جحيم الصراع أحزانه الذاتية.

●●●



لم يحاول «أبو لؤلؤة» قبل ذلك أن يتحمل المسئولية كرب أسرة، وكان يعيش عالة يرتزق من شعره، ولا يدخر شيئًا لغده، ولا يملك إلا منزلاً صغيراً، تشيع فى جنباته رائحة الإهمال والقاذورات، ولا تسمع فيه صدى لصوت طائر ولا ترى فيه مظهراً من مظاهر التأثيث والتنسيق.

وعندما توسط ساحة البيت ومعه «وعد» الزوجة التى فرضتها الظروف القاهرة عليه، هتف قائلاً:

- «هذا منزلنا؟».

- «أمر يؤسف له.. إنه مجرد كوخ..».

- «لهذا أقول لك جاداً لتنسى قصر سيدك «على بن أميمة» يجب أن تمحى من ذاكرتك كل ألوان الطعام والشراب التى تعودت عليها من قبل.. نحن هنا فى قلب البلدة الفقيرة كما ترين؛ الألوف يلبسون المهلهل من الثياب، ويقنعون بأردأ أنواع الطعام وأقلها..

وقد تقوم معركة دامية من أجل التسابق على الرزق؛ لأن البلدة فى مجاعة، فقد أتلفت الحرب كثيراً من المزروعات، واستولى المتحاربون على قطعان كبيرة من الأغنام والماعز والإبل، كما أخذوا المخزون من الحبوب، الناس يقاسون بالفعل من مجاعة . . . والصدقات التى يتفضل بها الأغنياء لا تحل المشكلة الآن حلاً مقنعًا . . ولا تقولى إنك بلهاء لا تفهمين ما أتحدث عنه . . إن نصف بلاهتك تمثيل، أنا أعرفك فتحملى المسئولية كاملة، ولا تنتظرى منى خيراً كثيراً وإلا فالباب مفتوح أمامك، تستطيعين أن ترحلى من هنا فى أى وقت تشائين . . » .

تطلعت «وعد» هنا وهناك، الأوانى المحطمة ملقاة فى إهمال، وبساط عجمى قديم مهترئ مبسوط على مصطبة ترتفع قليلاً عن الأرض، وإناء فخارى يرشح ماء ويبلل الأرض أسفله، وقرطاس ومحبرة وأقلام من البوص ملقاة على لوح خشبى فوق المصطبة، وبعض الأطباق الفارغة الملوثة تتراقص فوق رف خشبى مثبت فى الحائط، وحجرتان متقابلتان، لا ترى «وعد» ما بداخلهما بسبب إغلاق نوافذهما وانحسار ضوء الشمس عنهما . . . » .

وتمتمت «وعد» فى حيرة .

- «أين المطبخ . . » .

فقال ساخراً :

- «نسيناه فى قصر مولاتك . . » .

- «لا أرى أى مظهر من مظاهر الحياة أو الاستعداد للحياة هنا . . » .

- «لأنك بلهاء . . ولأنك لا تريدين التسليم بالواقع . . يجب أن تفهمى أنك قد انتقلت من قصر إلى كوخ . . وتستطيعين القياس على ذلك بالنسبة للطعام والملبس والمشرب والتسلية . . وكل شىء ولولا الجنين الذى يسكن أحشاءك لما قبلت هذه الدعابة السخيفة من سيدك السابق «على» ، لكن لا حيلة لى فى الأمر . . » .

وانفجرت «وعد باكية ، وألقت بجثتها على المصطبة القريبة ، وانكفأت على صرة الملابس التى جمعتها عند رحيلها فى القصر ، وأخذت تمرغ وجهها فيها ، وتنشب أظافرها ، ها هى تنال الحرية فتسعد لأول وهلة ، ثم تأتى لتواجه الواقع والحياة ، فتشعر بالعجز والخوف وتنظر إلى زوجها العابس القاسى ، وإلى المسئولية التى تنتظرها فتتذكر أيام العبودية الجميلة ، وراحة البال ، والمطبخ الملىء بالخيرات ، والدنانير الذهبية والبسط العجمية ، والأثاث الفاخر ، والقصر والبستان ، وحياة الدعة والنعيم ، لشد ما انزعجت للفارق الضخم ! ! لكن ماذا تفعل وهى تحمل فى أحشائها جنينًا؟ ماذا تفعل وقد وهبها سيدها «لأبى لؤلؤة»؟ ولم يكن أمامها من سبيل سوى أن تقبل هذا السجن ولو مؤقتًا .

وقاست «وعد» فى الليلة الأولى شتى صنوف العذاب، حاول «أبو لؤلؤة» جاهداً أن يرفه عنها، بعد أن أدرك جفوة مسلكه، وفظاظة حديثه معها، وعاملها كما تعامل الزوجة فى ليلة الزفاف، ومع ذلك فإن النوم يبدو وكأنه قد خاصم جفنيها، ولم تكن بعض الحشرات هى المسئولة وحدها عن أرقها، فقد ولت بلاهتها، وحل محلها صمت دام حزين إن الزواج يبدو فى نظرها وكأنه عقوبة صارمة، كانت منذ ساعات أمة تباع وتشترى ولكنها الآن زوجة، وأى فتاة فى مثل سنها ووضعها كانت لا بد أن تشعر بالسعادة والرضى، وتحمد الله على ذلك التوفيق المنقطع النظير، لكنها على العكس من ذلك كانت تعسة شاردة تضيق ذرعًا بالحرية الجديدة وبوضعها كسيدة بيت، وزوجة شاعر يهابه الناس.. ومن آن لآخر تزفر فى ضيق وتتنهد فى ألم، وصحا «أبو لؤلؤة» من نومه قبيل الفجر فوجدها مفتوحة العينين فقال:

- «أما زلت متيقظة؟».

- «لا أستطيع النوم..».

- «سوف تألفين هذه الحشرات، وفى الليالى القادمة ستنامين فى عمق.. أغلقى عينيك جيداً وحاولى النوم..».

وظلت صامتة برهة، ثم قالت:

- «ماذا لو بقيت خادمة فى بيت مولاى السابق؟!».

- «عدنا إلى البلاهة مرة أخرى، إن كرامتى كزوج تأبى علىّ مثل هذا التصرف المشين».

فقالت فى مرارة:

- «كرامتك؟».

- «أجل تعلمين أنى شاعر مرموق، ولا يصح أن تكون زوجتى خادمة..».

- «لكنى لا أرى لك مصدراً ثابتًا للزرق..».

- «أنا شاعر أيتها البلهاء.. وعندما أنال حقى من التقدير اللائق بى سينهال علىّ الذهب من كل مكان، وسأعيش فى قصر أروع من قصر «علىّ بن أبى أميمة».. الشعر أعظم وسام يضعه العربى على صدره..».

فقالت فى ضيق:

- «هذه أحلام شعراء».

- «أنا فى الأربعين من عمرى، وهذه سن أتفاءل بها، ففى مثلها نزل الوحى على رسول الله..».

فأردفت قائلة:

- «وفيه جاءتك كارثة الزواج..».

- «هى كارثة بالفعل، ويجب أن نستقبلها بالصبر . . ».

وفى الصباح قامت «وعد» وأخذت فى تنظيف البيت وتنظيمه، وأخذت تمسح عن نوافذه وجدرانه وأبوابه ما علق بها من غبار، ثم اغتسلت وأعدت طعام الفطور وقدحًا من القهوة لزوجها، وتطلع «أبو لؤلؤة» إلى البيت وقد بدا مجلوًا نظيفًا وتمتم:

- «هذه أولى حسنات الزواج . . . لكن سيئاته بالتأكيد تربو على حسناته عشرات المرات . . . ».

فقالت وهى تجلس قبالته أمام أطباق الطعام:

- «يجب أن تبحث لك عن عمل . . ».

- «أنا شاعر، فماذا تريدين منى غير ذلك . . ».

- «تستطيع أن تجد عملاً فى ديوان البلدة، إنَّ أسلوبك وأدبك يرشحانك لوظيفة كاتب الرسائل هناك . . ».

- «سوف نفكر فى الأمر بعد ذلك . . ».

- «ولِمَ لا يكون اليوم . . ».

- «سيضحك الناس منى . . فأنا رجل أعيش للشعر طول حياتى . . وأى تغيير سوف يقابل بالدهشة والسخرية . . ».

فقالت دون أن يبدو عليها أى أثر من آثار البلاهة السابقة:

- «أنا لا أفكر فى الناس بقدر ما أفكر فى مستقبلنا ومستقبل ابننا الذى سيأتى بعد شهور . . » .

فطرب لهذه الفكرة ، وأبهجه أنه سيكون أبًا ، فابتسم فى سعادة وكأنه قد أتى عملاً بطوليًا خارقًا ، وقال :

- «حسنًا . . . سأحاول . . » .

●●●

وطوال اليوم كانت «وعد» تفكر فى «ياسمين» ، كانت تحسدها على أنها لم تزل تعيش فى القصر حيث النعيم والرخاء ، وكل شىء بلا حساب .

وتذكرت «ميمون» العبد الحبشى ، فاغتاظت ؛ إذ أدركت أن هذا العبد الأسود السحنة والذى ظل يطاردها ردحًا طويلاً من الزمن ، يستمتع بكل تلك الخيرات ، ولا يقلقه الطعام والشراب ولا يحمل مسئولية تذكر .

وتذكرت مطبخ القصر والصحاف غالية الثمن ، والأوانى اللامعة ، وكميات الدسم المخزونة ، والتوابل واللحوم والخبز الأبيض ، والفواكه الطازجة ، فتنهّدت فى حسرة وألم وتمتمت :

- «يا له من عقاب أستحقه على ما بدر منى من تفريط . . » .

وعاد أبو لؤلؤة فى المساء، والفرحة تكاد تحمله على أجنحة سحرية، ، وأسرع إليها، وأخذ ينثر أمامها بعض الدنانير الذهبية ويقول:

- «انظرى . . هذا نتاج قصيدتين اثنتين . . مدحت الحاكم فأعطانى صرة بها خمسة دنانير، ومدحت «على بن أبى أميمة»، فلم يجد علىّ بغير ثلاثة . . هذا بداية الخير».

فقالت «وعد» باسمة:

- «إنّ ما يسعدنى هو أنك بدأت الكفاح فعلاً . . .».

- «وعندما يؤمنون بعبقريتى، فسأكون من جلساء الخليفة «أبى العباس» . . وسترين . .».

●●●



عاودت «عليّ بن أبى أميمة» من جديد ذكرى أبيه الذى مات غيلة فأخذ يردد بألم. كيف أباح القاتل الآثم أن يغرق اللحية البيضاء الوقور بالدم الزكى؟ واتقد جسده غيظًا وحنقًا، واتخذ قرارًا لا رجعة فيه، وهمس فى أذن زوجه ذات مساء:

- «سوف أرحل غدًا..».

فهتفت فى إشفاق:

- «إلى أين؟».

- «سأبحث عن قاتل أبى».

- «أتعود لهذا الأمر مرة أخرى؟».

- «لا أستطيع أن أعيش والعار يلاحقنى..».

فأدارت وجهها بعيدًا وتمتمت:

- «يبدو أنك قد مللت الإقامة إلى جوارى..».

- «لِمَ هذا الظن يا «لمياء»؟» .

- «لقد كدت تنسى هذا الأمر ، فما الداعى للتفكير فيه مرة أخرى . .» .

- «لأنه يتعلق بشرف الأسرة . . والقاتل لابد أن يأخذ جزاءه - أبى لم يمت فى معركة علنية . .» .

كانت «لمياء» تتساءل بينها وبين نفسها ، لماذا يفكر زوجها الآن - والآن بالذات- فى الثأر لأبيه؟! هل أثرت الأحداث الجارية فى أروقة القصر على أعصابه وتفكيره ، ودفعته لأن يمارس لعبة الحرب والدم من جديد لهذا قالت له :

- «ثق أنه لن تحدث متاعب بعد الآن . . وأنا بدورى قد نسيت ما حدث بين «وعد» و«أبى لؤلؤة» ، وهذه مسألة لا تستحق كل ما تعانيه من ضيق وكدر . . إننى مقتنعة تمامًا بمنطقك لتعش بيننا لنسعد بك وتسعد بنا . . ولن تجد ما يثيرك أو ينغصك ، وإذا أردت تصريحًا أكثر من ذلك ، فلتسمعها منى دون مواربة إن «ياسمين» جاريتك وأمتك التى اشتريتها بمالك ، ولك أن تسلك معها السلوك الذى تشاء . . عاشرها معاشرة الأزواج ، فهذا من حقك . . ولن ألومك أو يلومك أحد ، وأطرقت برأسها صامتة ، فقال «علىّ» :

- «ما معنى هذا التصريح؟» .

- «ليس له سوى معنى واحد هو أننا نريدك إلى جوارنا بأى ثمن.. نحن نخشى المغامرات، ونرتعد خوفًا حينما نتوهم -لا سمح الله- أننا قد نفقدك فى يوم من الآيام..».

فقال فى هدوء يحسد عليه:

- «ما بى رغبة فى «ياسمين» أو غيرها.. ولم ولن أفكر إلا فى إرضاء زوجتى وإسعادها، لكن أبى لن أنساه، لست بالابن العاق الذى يفرط فى ثأر أبيه، وأؤكد لك أنى سأعود سالمًا.. سأخرج كل يوم فى الصباح وأعود فى المساء بإذن الله لأنام بينكم تحت سقف قصرنا.. لن أتغيب عنكم سوى بضع ساعات كل يوم.. عندما يقع القاتل فى يدى فلن يبدى أية مقاومة.. لقد دانت رقاب العباد لنا نحن العباسيين وأشياع العباسيين، وماتت كل مقاومة منذ أن سقط الخليفة وأبيد جيشه، وقام بالحكم خليفتنا الجديد «أبو العباس».

والذين يكرهون العباسيين لا يستطيعون التعبير عن شعورهم حتى لأقرب الناس إليهم.

وقبضتنا الحديدية تمسك الأمر فى قوة وحزم.. هذا هو قرارى الأخير الذى لا رجعة فيه.

«انتهى الأمر..».

ووجدت «المياء» نفسها مرغمة على قبول الأمر الواقع، فمستحيل أن يتزحزح زوجها عن رأى يراه، الأسرة لديه كالمبدأ، كرامتها فوق كل اعتبار.

وسمعا صوتًا عاليًا يتردد أسفل النافذة:

- «أنزل إلىّ يا «ابن أبى أميمة». . مستحيل أن يقذف إلىّ بهذه البلية وتتركنى. . أريد مالاً وطعامًا، وإلا طلقتها طلاقًا. . لا رجعة فيه، وأعدتها إليك. .».

وتمتم «علىّ» وقد رجعت على شفتيه ابتسامة:

- «هذا الرجل يأخذ الأمور ببساطة. . لا يحمل همًا. . . إنه يعيش بقلب طفل. . ويثق فى المستقبل ثقة عمياء.».

فقالت زوجته:

- «إن حمل الهموم يأتى بشيخوخة مبكرة. .».

- «بالضبط».

- «أجل. . إن بى حاجة إلى المرح والضحك. . وهذا الرجل برغم قبحه ورداءة شعره، يسرق منى الأحزان، ويقذف بها إلى هوة سحيقة. . إن حديثه عن نفسه وعن «وعد» سوف يكون مضحكًا للغاية. .».

وأثناء هبوط الدرج، جاءه «ميمون» وقال:

عابر سبيل يقف بالباب.

- «ماذا يريد؟».

- «لا أدرى.. لقد توسل إلىّ أن أتيح له فرصة لقاء صاحب القصر..».

- «حسنًا.. أنا مستعد للقائه..».

●●●



كان الغريب- أو عابر السبيل كما سماه ميمون- يقف مرهقًا مكدوراً بباب القصر، لقد قضى شهرين فى الترحال والتنكير، وكانت عواطفه موزعة بين اليأس والأمل، إنه يضرب فى الأرض منذ ليال يلتمس الصدقات والحماية ممن يتوسم فيهم الخير والنخوة، وينام حينما تلقى به قدماه، الخوف يكاد يقتله، لكن حب الحياة يدفعه دفعًا إلى التشبث بالصبر والأمل ومن آن لآخر يرفع وجهه ويديه إلى السماء، طالبًا العون من الله الذى لا يتخلى عن عبيده فى أحرج لحظات الحياة. . لقد يئس الغريب من كثرة الترحال والتنكير، وملَّ حياة الخوف والتشرد، ويريد أن يستقر بأى ثمن، إنه وحيد ليس زوجة ولا أولاد، ومن السهل عليه أن يستقر فى أى أرض يجد فيها الأمان والرزق، وتوقف لدى قصر «على بن أبى أميمة» وقد أطبق الظلام على الكون، وهجعت العيون أو كادت، وقرر أن يدفع بآخر سهم فى جعبته لعل الله يكتب له السلامة. .

وحينما أخذوه إلى «عليّ» التفت الغريب إلى «أبى لؤلؤة» فى قلق وطلب من سيد القصر لحظة انفراد حتى يحدثه حديثًا خاصًا، وعندما صارا وحيدين، رفع إليه الغريب عينين ضارعتين وهتف:

- «إذا كان فى يديك أن تؤمن لى الحياة، فهل تضنّ عليّ بذلك كإنسان..».

فقال «عليّ».

- «أستغفر الله، فأنا عبد ضعيف.. والأمر كله لله..».

- «إنى يا سيدى أستنجد بمروءتك وإسلامك..».

- «أنا لا أكاد أفهم شيئًا».

- «معذرة فأنا رجل من أنصار بنى أمية، وقد كنت مغاليًا وصريحًا فى عدائى لخصومهم.. وعندما انتهت المعركة بالنصر للعباسيين أهدروا دمى، فهمت على وجهى فى الطرقات والشعاب حتى مللت هذه الرحلة المميتة اليائسة التى لا أعرف مصيرى فيها.. امدد إليّ يد العون، وأنت كما يبدو لى رجل ذو جاه وثراء ومكانة.. ارحموا عزيز قوم ذل..».

فقال «عليّ بن أبى أميمة» باسمًا:

- «يبدو أنك أسأت الاختيار، ولم تر الرايات السوداء التى تخفق فوق بيتى.. نحن من غلاة المشايعين للعباسيين..».

فارتعدت فرائص الرجل، وأمسك بيد «عليّ» متوسلاً، وهتف:

- «أفهم من ذلك أنى قد ألقيت بنفسى بين فكى الأسد..».

فقال «على»:

- «كانت قسوتكم مضرب الأمثال..».

- «إنى أعترف بغلطتنا..».

- «وكنتم لا تنجدون مستغيثًا..».

- «وهذا ما يحزننى..».

- «تندمون بعد أن أذقتم العباد الأهوال..».

- «وماذا نفعل غير ذلك، وقد أراد الله لنا الهزيمة، وانتقم منا أبشع انتقام..».

- «كان غروركم يعميكم عن الحق..».

- «أنا لا أذكر ذلك».

- «وكنتم تلتمسون فى نصوص الدين الطاهرة العادلة مبررًا لسفككم الدم الحرام، وإلقاء الأبرياء فى غياهب السجون..».

فقال الغريب وقد تفصَّد جبينه عرقًا:

- «معذرة، فقد كنا أداة ظالمة فى يد الخبثاء..».

وسادت فترة صمت قال الغريب بعدها :

- «الآن وقد أخطأت هدفى، فليس لى غير رجاء واحد، ألا وهو أن تصفح عنى، وتتركنى أهيم فى الطرقات، وليفعل الله بى ما يشاء. . إنه عذاب لا يحتمله بشر. . ».

فقال «علىّ»، وهو يتذكر مأساة أبيه، وما فعله الأمويون به وبغيره :

- «لن أغدر بك. . ليس هذا من خلقى. . وسأتركك لحال سبيلك. . ».

فاختطف الغريب يده ليقبلها عرفانًا بالجميل، وأحزان الدنيا كلها تتراكم على قلبه القلق الجريح، فانتزعها «على» منه فى آخر لحظة، وتحرك الغريب خارجًا، كانت خطواته متعثرة مكدودة. . ، ملابسه الرثة الممزقة تثير الشفقة، ورأسه المطرق فى ذلة يفتت القلوب، وتمتم وهو يبتعد :

- «أنا إنسان تعس. . لكن هذا جزائى. . ونهايتى نهاية قاسية تعسة لا شك فى ذلك. . لماذا لا أضع حدًا لآلامى، وأتخلص من حياتى».

لكنه سمع «على» يقول :

- «انتظر يجب أن تستريح قليلاً، وتتناول طعامك وشرابك. .

يبدو عليك أنك قطعت عديداً من الفراسخ فى عرض الصحراء. . ».

- «هذا كثير. . إن ما أطمع فيه هو النجاة بحياتى. . ».

- «كن واثقًا من ذلك. . لا بد أن تقضى هنا الليلة. . ».

كان فى حاجة ملحة إلى الطعام والشراب والراحة، وكان يائسًا متعبًا؛ ولهذا لم ير مانعًا من البقاء حتى ينال قسطًا من النوم، وليكن ما يكون، فالأمويون يخافون على أنفسهم ويأبون حمايته خوفًا على حياة من يخالفهم، والعباسيون يكرهونه لتاريخه الملوث بالدم والعار، والمصير يعرفه الله وحده، فتمتم الغريب:

- «شكرًا يا سيدى. . ليبارك لك الله فى صحتك وثروتك وأهلك، هذا تصرف نبيل من رجل شهم، لن أنساه لك طول حياتى إن كان لى حياة. . ».

- «لن يضير العباسيين أن يعفوا عن عدو واحد. . » وبقى الغريب ليلته فى القصر، كان الفراش وثيرًا، والطعام وفيرًا، والخدمات ممتازة، لكنه لم يستطع النوم، فقد كان قلقه وعذابه أكبر بكثير من تعبه الجسمانى، وكان مصيره الغامض يلهب روحه بسياط الندم، لماذا فعل كل ذلك؟

أكان الأمويون، يستحقون كل هذه التضحيات والحروب؟؟
أكان يدافع عن الإسلام فعلاً كما أو هموه؟؟

وهل كان خلاف الرأى مدعاة لهذه الحروب الدامية التى راح ضحيتها الآلاف من الأعداء والأصدقاء على السوء؟

لماذا لم يعش سمحًا رقيقًا واسع الصدر لشتى الآراء والأفكار؟ وما معنى أن تبقى الخلافة مع إنسان أو تنتزع منه وينالها إنسان آخر؟ ليست المشكلة مشكلة فرد أو بيت، ليتهم نادوا بالأصلح، ولم يرتبطوا بحزب من الأحزاب، أو بيت من البيوتات، وماذا جنى المسلمون من هذا العذاب كله؟ الأمويون كانوا قساة لا شك فى ذلك، والعباسيون لا يقلون عنهم قسوة حسبما يرى، والدنيا مضطربة هائجة، ومفزوعو الأمس هم آمنو اليوم، وقد تنعكس الآية غداً، والإسلام يبكى ضيعة الدماء الغالية وإهدار قيمة الخالدة. . والناس لاهون لا يستمعون لصوت العقل والدين. . ألا يبعث الله برجل لا يتمى لأية طائفة من الطوائف المتنازعة، ويكون منتسبًا لله وحده، لا لبيت من البيوتات، ويجعل على يديه الخلاص والحب والسلام؟

●●●

وفى حجرة أخرى كانت تنام «ياسمين» وهى تشعر شعوراً ضافيًا بالضيق، وتأنيب الضمير، أما «علىّ» فقد كان يتمدد إلى

جوار زوجته، يحدثها عن ذلك الغريب الذى ضل الطريق، والذى ارتكب من الحماقات ما جعله مفزعًا مهدر الدم، وتمتمت «لمياء»:

- «أين يذهب المسكين؟ أيخرج من أرض الله؟».

- «إنه عقاب فرضته الأقدار على كل آثم..».

- «ولماذا لا يتسع قلبنا للصفح عنه؟؟ ألا يكفى ما أريق من دماء؟!»

- «إن الحاكم الرحيم لا يبكى على أريكة الملك طويلاً والحفاظ على سلامة الأمة يقتضى شيئًا من العنف والقسوة..».

- «إذن فالرحماء لا يصح أن يكونوا حكامًا..».

- «بالطبع..»

- «لكن رسول الله ﷺ كان أرحم الرحماء، وكان حاكمًا مثاليًا.. و «أبو بكر» نشر الحرب والسلام بعد أن أدب المرتدين، و «عمربن الخطاب» برغم حزمه لم يتجنَّ أو يقسو حينما يجد مكانًا للرحمة، كان يقبل آراء المعارضين فى سماحة، حتى إنه أفسح صدره لامرأة أخطأته وقال: أصابت امرأة وأخطأ عمر، و «على بن أبى طالب».. كان متسامحًا، وعمر بن عبد العزيز، وهو أعدل حكام بنى أمية، كان مضرب الأمثال فى الرحمة والشفقة والعفو، أنا على النقيض منك.. أرى أن الرحمة من أوجب واجبات

الحاكم، وأهم صفة تؤهله لهذا المنصب الخطير، فبالرحمة يستقر الحكم ويسعد البشر، وينتشر الحب والسلام. . ، لست أعنى بالرحمة التهاون والضعف والتفريط. . الحزم الأعمى ظلم وطغيان، والرحمة البلهاء تفريط، ومثل هذا الرجل الغريب يجب أن يحظى بالرحمة. . ».

وفوجئت لمياء بزوجها يقول فى حرارة:

- «أنا مقتنع تمامًا بوجهة نظرك الصائبة يا زوجتى الحبيبة يا ذات القلب الكبير. . ».

- «أتسخر منى؟».

- «أقسم أنى لا أمزح لقد قررت أمرًا. . ».

- «ما هو؟».

- «سوف أحمى هذا الرجل، وسأبقيه هنا إذا لم يمانع فى ذلك، ولن تمتد إليه بسوء. . يستطيع أن يعمل ويكسب رزقه ويعيش كرجل من الرجال الذين يعملون فى ضيعتنا أو فى تجارتنا. . ».

فطوقته «لمياء» بذراعيها وهمست:

- «يا أنبل زوج فى الوجود. . ».

- «إن إشعاعات روحك الطاهرة تضيء لي الطريق..».

- «هذا إطراء لا أستحقه..».

- «بل تستحقين أكثر من ذلك..».

- «أفهم من ذلك أنك لن تخرج غدًا للبحث عن قاتل أبيك».

فقال في إصرار:

- «أما هذا فلا، إنه أمر يتعلق بالشرف والكرامة.. وصدق الله إذا يقول:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩].

●●●



في الصباح الباكر التقى «على» بالغريب، وأفضى إليه بصفحه عنه، وتناسيه لما بينهما من خلافات سياسية، واستعداده التام لقبوله واحداً من رجاله، وأعطاه عهداً بالأمان والرعاية، واشترط عليه أن يغير اسمه وملبسه وهيئته العامة، وأن يحمل الراية السوداء شعار العباسيين على صدره، إمعاناً فى التخفى، ومنعاً للقيل والقال، وإبعاداً للشبهات فى تلك الأيام العصيبة التى لا يرحم الثوار فيها أى إنسان مشبوه، واستمع الغريب إلى حديث «على» فى ثقة وارتياح، ودعا الله أن يثيبه على أعماله الإنسانية الطيبة خير الثواب.. وقال «على» فى نهاية حديثه:

- «والآن سأتركك، وسأعود فى المساء، وأتعشم أن أراك وقد وضعت ما اتفقنا عليه موضع التنفيذ..».

فقال الغريب:

- «ثق أنى لن أتخلف عن أداء أى شىء تأمرنى به..».

- «العفو . . أنا لا آمرك . . ولكنها مجرد إجراءات لا يقصد بها سوى التستر عليك، وحمايتك من بطش السيوف العباسية . . » .

- «وهل أنسى لك يا سيدى أنك وهبتنى الأمان والحياة؟» .

- «بل هو واجب إنسانى تفرضه مبادؤنا الإسلامية» .

- «ما أقل أولئك الذين يتمسكون بأهداب الدين، ويؤثرون الآخرة على الدنيا!» .

- «الفضل لله وحده أيها الغريب . . » .

- «والآن كلمة «الغريب» لا تناسب علاقة الود القائمة بيننا . . » .

- «فبأى اسم أناديك؟» .

- «تستطيع أن تدعونى «حسان بن نافع» .

- «وأرجو أن تكون نافعًا» .

وامتطى «على» جواده، وانطلق فى شوارع البلدة، متجهًا عبر الفضاء الذى يحيط بها، كانت الشمس على وشك الشروق، والنسائم ندية رطبة، وقطرات الندى تلمع فوق الحشائش وأوراق الأشجار، وعديد من البساتين وحقول الحنطة والشعير تمتد إلى بعيد والحمائم البيضاء والعصافير والغربان تلوح بأجنحتها عبر

السماء الزرقاء الصافية، وكان «على» يقصد المنطقة التى قتل أبوه فيها غيلة، فالجميع هناك يعرفون القصة، ويعرفون القاتل والقتيل، والأسباب التى أدت إلى الجريمة، وهناك يعرفون المتشيعين للدولة العباسية، وفيهم أصدقاء له، ولسوف يسألهم عن الجانى، وعن اسمه ومكان إقامته، وهل ما زال حيًا أم اكتسحه طوفان الثورة؟».

وتمنى «على» فى هذه اللحظة أن يكون عدوه قد مات. . لسوف يتضايق بعض الشيء؛ لأنه لم يأخذ بثأر أبيه بيده، لكنه سيستريح ويعود إلى بيته وزوجته، وتنتهى المأساة عند هذا الحد. .

وتوسطت الشمس كبد السماء، وأرسلت شواظًا حارقًا، كان الجو يتقد كجمرة، والعرق يتقاطر على جبينه الأسمر، ومظاهر الإعياء والضيق ترتسم على محياه، وشعر برغبة حارقة فى كوب من الماء البارد، إن الظمأ يكاد يقتله، ليته كان من البلورية بالماء العذاب البارد، وشرب وارتوى حتى نال بغيته، لكن الحياة قاسية وتقاليدها أقسى، ووفاؤه لدم أبيه المراق يحرضه على المضى فى طريقه، حتى يسلم من تأنيب الضمير، وينجو من العار الذى سوف يلحقه قطعًا إذا ما تهاون أو قصَّر. .

وبدت مشارف البلدة التى يقصدها، كان نخيلها يتطاول نحو الأفق، وعناقيد البلح تبرق تحت وهج الشمس، وبعض المبانى البيضاء تتراءى له شاهقة راسخة، وقطيع من الأغنام يتسابق نحو

أكمة خضراء ليحتمى تحت ظلها، وينعم بأعشابها، كل مظاهر الحياة حوله فى هذه المنطقة الهادئة تبتسم بسمة السلام والسكينة، أما روحه فتشتعل حنقًا وحقدًا، وتتوثب للثأر، هنا لقى أبوه منيته، هنا تسللت إليه يد غادرة وطعنته طعنة قاسية، فارتمى مضرجًا بدمائه . . ما أكثر الضحايا الذين غدر بهم الأمويون بالقتل غيلة، أو بدس السم لهم ! ! . .

وعدما دخل «على» البلدة، ومضى بضع خطوات فى شارعه الرئيسى حتى وجد نفسه أمام مخزن كبير للغلال، وأرسل نظراته داخل المخزن، وشعر بالارتياح وهو يرى أحد زملائه التجار يتوسط عملاءه ويقسم أغلظ الأيمان بأن الأسعار فى ارتفاع بسبب المعارك الدائرة التى أتلفت كثيرًا من المزارع، واستولت على عدد كبير من المخازن . . وتوقف «على» عن المسير . .

ولفت بوقوفه هذا وتسديده لنظراته نحو المخزن أنظار الرجال الواقفين فيه، وحينما وقعت عين التاجر عليه، وقف جامدًا لحظة ليتأكد مما يرى ثم هتف فى مرح : «مَنْ؟ «على بن أبى أميمة»؟ أقسم أنه هو» .

فابتسم «على»، ثم ترجل عن جواده، بينما هرول إليه التاجر فاتحًا ذراعيه وهو يهتف :

– «أنا لا أصدق عينى هذا يوم عيد . . أهلاً ومرحبًا . . » .

وقام التاجر العربى بما يقوم به عادة نحو ضيف عزيز، وزميل فى العمل، وقضى بعض الوقت فى الحديث عن الأسعار والتجارة واضطراب الأسواق، وقطع المواصلات فى بعض المناطق واستنفاد الجيش لجزء كبير من دنانير بيت المال، وكثرة الضرائب وما إلى ذلك.

ثم مال «على» على أذن صديقه فجأة وقال:

- «جئت لأمر مهم..».

- «يختص بالتجارة طبعًا..».

- «بل بمصرع أبى..».

وصدم التاجر لسماعه هذا الكلام، وبان على وجهه الحزن العميق، وتمتم..

- «ماذا تريد على وجه الدقة..».

- «أريد أن أعرف اسم القاتل..».

- «الجميع يعرفونه».

- «مَنْ هو؟».

- «إبراهيم بن سليمان».

فاختلطت كل عضلة فى جسد «على» وامتقع وجهه، وقال:

- «وأين أجده؟».

- «أنت وحيد هنا..».

- «أنا أعرف ما أنا مقدم عليه..».

- «أتريد قتله؟».

- «أريد أن أعرف أين هؤلاء أولاً..».

فقال التاجر: «لقد رحل عن هنا..».

- «أهي وسيلة منك لصرفي عن الأمر كلية؟».

- «أنا لا أخدعك يا «علي»».

- «إذن فخذني إليه..».

- «كان الجميع يعرفون طغيانه واستناده إلى حكام بني أمية، وكم قاسى مخالفوه في الرأي الأهوال على يديه، كان يبطش بهم، أو يرد على آرائهم بسيفه.. وعندما قامت الثورة وانهزم الأمويون وشيعتهم، اختفى فجأة ولم يعثر له أحد على أثر..

كان ضحايا كثيرين، عشرات السيوف كانت تنتظر هذه اللحظة للفتك به وعندما ذهبوا إلى داره، ولم يجدوا بها سوى أمه العجوز، اشتعلت نفوسهم غيظًا، فأخرجوها من البيت.. ثم أحرقوا البيت وما فيه من أثاث..».

فتمتم «على» فى مرارة . .

- «القدر يقسو على . . لكنى لن أتركه . . سوف أبحث عنه فى كل مكان، ولن أشعر بالارتياح إلا بعد أن أعثر عليه حيًا ميتًا . . » .

فرد التاجر فى إشفاق : «إنها مهمة شاقة . . » .

- «لكنى سأستعذب كل غصة حتى أصل إلى ما أريد . . » .

- «ما كنت أحسبك على هذه الصورة من العنف، ليست هذه أخلاق التجار، فقد علمتنى التجارة الصبر والمداراة والصفح . . فى أغلب الأحيان، وعلمتنى ألا أفكر كثيرًا فى أقوال الناس وانتقاداتهم . . إن ارتباطك بهذه المشكلات السياسية والمشكلات الخاصة يثير الاضطراب فى تجارتك، وينعكس على وضعك المالى كله . . إن قتل عدوك لن يعيد إليك أباك . . » .

فابتسم «على» فى سخرية وقال :

- «أنا لا أريد قتل فرد . . إنما أريد التضامن للقضاء على معنى الشر المتجسم فيه . . أنا أقتل الرذيلة، وأقضى لحق الحياة المقدسة . . لقد ثرت ضد الأمويين بالأمس من أجل معنى . . واليوم أريد الثأر لأبى من أجل معنى أيضًا، المسألة مسألة مبدأ- إنها تتعلق باستئصال شأفة الأمويين وما خلفوه من آثام ومعانى شريرة شيطانية . . » .

وتعجب «على» حينما سمع صديقه التاجر يقول:

- «ألك زوجة وأولاد؟».

- «بالطبع..».

- «أتحبهم؟».

- «ما فى ذلك شك..».

- «فلماذا تتركهم وتسيح فى الأرض باحثًا عن رجل حقير لا يساوى عشر معشار الجهاد الذى يبذل فى البحث عنه؟».

فقال «على»: «أصحاب المبادئ لا يقيسون الأمور بهذه المقاييس التجارية البحتة..»، فهز التاجر رأسه فى يأس وقال:

- «إذن فلتبحث عنه فى مرو ودمشق ومصر والحجاز وعلى شواطئ دجلة والفرات..، ما أراك إلا ستقضى حياتك فى البحث، وينتهى الأجل، وتلفظ أنفاسك الأخيرة على قارعة الطريق..».

- «ولماذا لا تقول أنى سأعثر عليه..؟».

- «كل شىء جائز..».

وأخذ «على» بمساعدة صديقه التاجر يبحث عن معارف «إبراهيم بن سليمان» ورجح البعض أنَّ «إبراهيم بن سليمان» قد

يكون لجأ إلى مدينة «مرو»، فدهش «على» لهذا القول وعلق عليه قائلاً:

- «إن مدينة «مرو» قلعة عباسية، و «أبو مسلم الخراسانى» القائد الرهيب قد طهرها تمامًا من كل إنسان يحمل أضعف العطف على الأمويين، فكيف يلقى «يإبراهيم بن سليمان» بنفسه بين فكى الأسد؟».

فقال صديقه التاجر:

- «بعض الناس يعتقدون أنه لكى تنجو من الخطر يجب أن ترمى بنفسك فيه..».

- «هذا هراء إنها مغامرة غير مأمونة العواقب..».

فقال صديقه فى شىء من الملل:

- «هذا هو كل ما استطعنا الوصول إليه..».

عاد «على» فى المساء، وقيظ النهار قد تحول إلى نسمات رخية تذهب الضيق والكسل وقد حلا «لعلى» أن يمضى وحيداً حيث الصمت والظلام، إن هذا الهدوء الضارب يملأ روحه بالرضا، ويشيع فى جنباتها السكون المؤقت، وأخذ «على» ينحدر عن منحنى ربوة منبسطة بعض الشىء، وسمع صوتًا من جوف الليل يقول: «إلهى أشكو إليك ضعفى وقلة حيلتى وهوانى على الناس،

إلهى أبثك ما بى من حنين إليك، وافتقار إلى رضاك عنى، وشوق ملتهب إلى جنتك . .

إلهى . . ظهر الفساد فى البر والبحر . . ونسى الناس عظمتك وجلالك فوكلتهم إلى نفوسهم الضعيفة . . ونسوا الأخوة بينهم فجعلت بأسهم بينهم شديداً . .

فأنر . . يا إلهى . . طريق الحائرين بفيض نورك . . واملأ أرواحهم الجائعة برحيق الحب والسلام . . وابعث فيهم من يأخذ بأيديهم الملوثة إلى طريق الحق والخير . . ».

كانت هذه الضراعات تنسكب فى قلب «على» كما تنسكب قطرات الماء العذب فى جوف من عانى الظمأ ليال طويلة، ونزل عن جواده، واقترب من الكوخ، ونظر من كوة صغيرة فيه، ينبعث منها ضوء خافت فوجد شيخًا يبدو أنه قد ينيف على الستين من عمره، ووجهه متجه نحو السماء، وكفاه المعروقتان مرفوعتان إلى أعلى والدموع الغزار تتساقط من أطراف لحيته البيضاء، وقبل أن يفعل «على» شيئًا سمع الشيخ يقول:

- «إن عبدك «زين الدين» قد هجر الدنيا وما فيها، ومن فيها ولجأ إليك . . فهل تقبله؟ هل تقبله يا رب الأرباب؟».

استدار «على» وقرع باب الكوخ قرعات خفيفة، فسمع الصوت الواهن الراعش يقول: «ادخل . . ».

- «السلام عليك يا عبد الله . . » .

- «وعليك سلام الله ورحمته وبركاته يا عبد الله . . » .

ولم يبد على وجه «الصوفى» ما ينبئ عن دهشته أو خوفه فقال «على» بعد فترة صمت :

- «لِمَ لم تسألنى عن نفسى؟» .

- «تفضل بالجلوس . . » .

وجلس «على» وعيناه مركزتان على الشيخ ، وقال الصوفى :

- «ليس لدى سوى التمر واللبن . . » .

- «ما بى حاجة إلى طعام . . » .

- «لكنك جائع دائمًا . . وستظل جائعًا . . » .

فقال «على» فى دهشة :

- «أنا؟» .

- «أنا وأنت والآلاف المؤلفة فى شتى أنحاء الأرض . . » .

- «معذرة . . فأنا عابر سبيل ومعى زادى . . » .

- «الليل . . والطريق . . » .

- «ماذا تعنى يا سيدى الشيخ؟» .

- «حيث لا تسلم عثرات الأقدام . . » .

- «لا أفهم . . » .

- «نحن- الهاربين- لم نلجأ إلى هنا جبنًا ومروقًا من الحياة . . الهروب يحتاج إلى شجاعة فائقة يا ولدى فى هذا الزمان . . خبرنى عما تبحث؟» .

فقال «على» :

- «أنا لا أبحث عن شىء . . » .

-إذن فأنت كاذب أو ضال . . » .

- «لماذا؟» .

- «كل إنسان يبحث عن شىء . . » .

- «وأنت؟» .

- «ابحث عن نفسى . . » .

- «ألم تجدها بعد؟» .

- «فى الطريق إليها . . أنا أهرب من الناس لأجد نفسى . . وأنت؟ . . » .

فتمتم «على» وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

- «أبحث عن قاتل أبى . .».

- «هذا طريق لا شأن لى به . .».

- «لكنه القصاص . .».

- «ما أكثر الذين يرتكبون جرائم القتل دون أن يريقوا نقطة دم واحدة . .».

- «ماذا تعنى؟».

- «البشر سفاحون سواء أراقوا الدم أم لم يريقوه».

- «لا أفهم . .».

- «عندما تؤمن أنك قاتل ستفهم . .».

- «لم أغتل أحدًا . .».

- «أنت واهم أو ضال . .».

- «لكننى برىء من هذه التهم . .».

- «والآن دعنى وشأنى . . إذا أردت أن تبحث عن أحد فلتبحث عن نفسك التى بين جنبيك . .».

- «بين جنبى وأبحث عنها؟!».

- «تحتاج إلى مران طويل لتفهم لغتنا . .».

فقال «على»: «هل أنت أموىّ؟».

- «أنا دون ذلك بكثير . . » .

- «عباسى؟» .

- «دون ذلك بكثير . . » .

- «صوفى؟» .

- «دون ذلك بكثير . . » .

- «من أنت إذن؟» .

- «أنا لا شيء ، إن من لا يعرف نفسه هو أحط درجات البشر ، إنها أكبر الخطايا ألا يعرف الإنسان من هو؟ قد يكون بين من عددتهم لى من يعرف نفسه . . » .

- «أوشك الليل أن ينتصف ، و «على» قد وعد زوجه بالعودة فى اليوم نفسه ، وهى لا شك تنتظره ، والقلق قد استبد بها ، وعادت مرة أخرى لليالى الوحدة والانتظار والخوف ، وحرام عليه أن يتسبب فى هذا العذاب كله لها ، فليقم وليترك الشيخ ، ويعود إلى بيته . . » .

●●●



كان «حسان بن نافع» شابًا فى الثلاثين من عمره، فارع الطول أسود اللحية، يميل وجهه إلى السمرة، وأسع العينين، مثلث الوجه، عريض الجبهة، متين البنيان، ينمو على صدره شعر كث فاحم، وكان «حسان» محلاً للثقة التى أولاه إياها صاحب القصر، فقد حرص تمام الحرص على أن يكون مثاليًا فى سلوكه وتصرفاته، فلم يحاول أن يتدخل فى شئون القصر وأهله، أو يدس أنفه فيما لا يعنيه، إلا فى حالة واحدة، فقد ارتاح إليه الصبى «حاتم» ابن صاحب القصر، وكان الصبى يقضى معه أوقاتًا كثيرة، حيث أصبح تعلقه به أمرًا لافتًا للنظر، ولقد كان صاحب القصر - بعد أن وجد لضيفه عملاً فى تجارته الواسعة - مرتاحًا إليه تمام الارتياح، فقد كان «حسان» نشطًا ذكيًا، حقق كثيرًا من الأرباح، وبث روحه وإخلاصه فى العمل، فكان سببًا فى تنظيم التجارة، والنجاح الكبير الذى بدا واضحًا جليًا.

ووجد «على» فى ضيفه صديقًا وفيًا، يحسن الحديث، ويجيد

السمر، وله دراية واسعة- برغم صغر سنه- فى شئون الحياة والفكر، ولم يلحظ على ضيفه سوى طموحه الذى لا حد له، وإيمانه العميق بأنه سيكون ذا شأن عظيم فى يوم من الأيام، ولهذا قال له «على» ذات يوم:

- «إن طموحك من النوع الخطر..».

- «ليس هناك إنسان بلا آمال».

- «يخيل إلى أن هذا الطموح الغريب هو سبب نكبتك..».

فاعترف «حسان» قائلاً:

-«إن إدراكك لهذه الحقيقة يجعلنى أكثر وثوقًا بثاقب نظرك، وأقوى إيمانًا بواسع أفقك..».

- «أتجاملنى؟».

- لقد عاهدت الله على أن أكون وفيًا أمينًا معك.. والشىء الذى لا مراء فيه هو أن طموحى قد أعمانى عن إدراك حقيقة الوسيلة التى أتوسل فى بلوغ أمنياتى.. والشباب اندفاع وتهور.

إن تطرفى فى العداء لخصوم بنى أمية، وارتكابى الحماقات والمغامرات، لم يكن له سبب سوى هذا الطموح.. وأنا لا أنكر أن ذلك الطموح قد تحول دون أن أدرى إلى ضرب من الأنانية مخيف.

فهز على رأسه قائلاً:

- «إن اعترافك بجوانب النقص فى سلوكك لما يفتح عينيك على الحقيقة، ويجعل طريق المستقبل أكبر وضوحًا واستقامة. . ».

- «هذا حق. . إنى نادم أشد الندم على حياتى السابقة، لا يعنينى أن أكون طموحًا، وإنما العيب كله فى وسائلى القذرة. . ثم لماذا نسيت أنى مسلم ومؤمن بالله ورسوله، والمسلم الحق دائمًا نظيف الوسيلة والهدف؛ إنه درس قاس ذلك الذى تعلمته فى هذه الأيام، وإنى أعترف أن عطفك على، وصفحك عنى قد ملأ نفسى بالحب والرضا والثقة فى الناس. . الدنيا لم تزل بخير والفضيلة هى الحامى الأول لكيان السعادة البشرية والأمن الاجتماعى. . إنى أشكرك لصفحك، وللدرس العظيم الذى تلقيته على يديك. . ».

فشعر «على» بالخجل وهو يستمع لهذا الإطراء وتلك الصراحة زادته حبًا وتعلقًا بضيفه، فمد إليه يده قائلاً:

- «هذه يدى يا «حسان». . إنى أمدها إليك متعاهدًا على أن نكون أخوين مسلمين، لا أريد عباسيًا ولا أمويًا، ولكنى أتمنى أن تكون أخًا مسلمًا».

فمد حسان يده فى انفعال وسعادة ترقرقت بهما عيناه الواسعتان وقال:

- «أعاهدك على ذلك».

- «وإنى أعاهدك على حمايتك والدفاع عنك حتى آخر نقطة من دمى».

- «إنى أشكر لك هذا العطف الإنسانى العميق.. وأعاهد الله أن أكون إلى جوارك أخًا مخلصًا، وأن أضحى فى سبيلك بكل ما أملك.. بحياتى التى هى أغلى شىء ولدى..».

وفى هذا الوقت أتى «حاتم» مسرعًا، وألقى بنفسه بين ذراعى حسان، وقال فى مرح صبيانى:

- «لقد ارتديت ملابسى، وتناولت طعامى.. فهل ستأخذنى معك إلى مخزن الغلال».

- «لكن المخزن ممتلئ بالأتربة التى قد تلوث ملابسك وتغير وجهك وشعرك الجميل..».

- «لكنى مُصرٌّ على الذهاب معك..».

فتدخل «على» قائلاً:

- «خذه معك، التجارة مدرسة كبيرة.. دعه يعيش فى سوقها ويتغبّر بترابها، ويستمع إلى المساومات، وإلى التجار البارعين».

فمال «حسان» على خد «حاتم» ولثمه فى حنان وقال:

- «سآخذك معى.. إن وجهك الوضىء المشرق يجعلنى أتفاءل خيراً.. فعندما تكون معى أحقق أرباحًا خيالية..».

وعندما هم «حسان» بالرحيل ومد يده لمصافحة «على» رأى على وجهه قتامة وحزنًا، فقال «حسان»:

- «ما بك؟».

- «ساسأفر اليوم إلى «مرو»..».

- «لماذا؟».

- «لأمر مهم.. وسأقضى هناك أسبوعًا كاملاً..».

- «أأستطيع أن أقوم نيابة عنك بهذه المهمة..؟».

- «لا يستطيع أن يقوم بها غيرى..».

- «إذن» فيلوفقك الله، ويكتب لك السلامة».

●●●

عاد «حسان» متعبًا، ورأسه يموج بطنين مزعج: إنها آثار التجارة والمناقشات الحادة فى البيع والشراء وكان ينتظر طعامه الذى حل ميعاده، وأقبلت جارية هيفاء، يبدو وجهها الشاحب كأروع ما يكون فتنة وجاذبية.

ولم يستطع «حسان» أن يصرف عينيه عنها، كانت صامتة لا تتكلم، وضعت الطعام فى هدوء، ثم قالت وهى لدى الباب.

- «أتريد شيئًا آخر؟».

قالتها دون أن ترفع وجهها إليه ، فقال فى ذهول :

- «من أنت» .

فرمقته بنظرة عابرة دون أن تجيب بشيء ، ومضت لحال سبيلها ، وكانت «ياسمين» زاهدة فى الرجال ، لقد أوصدت قلبها على ما يعتلج فيه من عواطف ومشاعر ، وقررت ألا تفتحه مطلقًا ، إن ما حدث لها كفيل بأن يصرفها عن كل حب ، ما الحب إلا نزوات مجنونة ، ومجلبة للمتاعب والذكريات التعسة؟ أى حس هذا الذى كشف لها عن حقارة شأنها ، وضراوة الإنسان ، وعرض حياتها للخطر ؟ ! .

لم يعد فى قلبها ذرة حب لسيدها ولم يعد بينها وبينه سوى حقوق الطاعة والولاء للسيد المالك .

ومع ذلك فهى لا تنكر أن ذلك الضيف الغريب ، والذى يسمونه «حسان» له جاذبية من نوع خاص ، يبدو أنه ضائع ضليل مثلها ، لكن حركاته وتصرفاته والعمل الذى كلفه به سيدها ، والغموض الذي يحيط به ، ويبدو أن هذا كله ليس له سوى معنى واحد ، وهو أن الغريب شخصية مهمة له دور غير عادى .

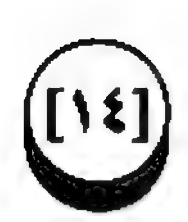
ولماذا تفكر فيه ، وفى جاذبيته وحقيقة أمره ، بعد أن أغلقت قلبها فى وجه كل إنسان يحاول أن يلجَهُ فى المستقبل القريب أو البعيد؟

إنها لا تعرف عن هذا الغريب سوى أنه رجل يقوم بعمل ، ويأوى إلى

القصر، وسيدها قد أمرهم بالقيام على خدمته على الوجه الأكمل. . إنها تؤدى دوراً منوطًا بها ولا شيء غير ذلك مع هذا فقد كانت تجد نفسها على الرغم منها تعيد التفكير فيه، وتحاول جاهدة أن تكشف عن أمره، وقد عزت هذا إلى حب الاستطلاع الكامن فى النفس البشرية.

ولم يسلم حسان من خوض غمار صراع من نوع مشابه لما خاضته «ياسمين» لقد شدت الجارية انتباهه، وقد رآها لأول مرة، واحتلت صورتها رأسه طول الليل، ووجد دافعًا قويًا يدفعه بلا هوادة للتفكير فيها، واستعادة منظرها وهى تلقى عليه نظرة عابرة، ثم التفاتها بوجهها الشاحب الهادئ الحزين، وذلك الصمت المطبق الذى توحى به لكل ملتق بها.

كان «حسان» يريد ألا يخرج على الخطة التى رسمها لنفسه، والسلوك الذى آمن به نحو القصر ومن فيه، إن أى خطأ فى تصرفاته، أو أية حماقة يرتكبها فى حق أحد سيكون معناها الخيانة، والغدر بالعهد الذى ارتبط به مع صاحب القصر، معناه أيضًا المغامرة بحياته الغالية التى انتزعها من بين براثن الذئاب العباسية، لهذا حاول أن يغالب هواه، ويكمم نزواته الثائرة التى تترجم عن حرمانه وغربته ووحدته، لقد تعلم من المآزق الخطرة، وليالى الرعب والفزع، تعلم كيف ينتصر على رغباته، ويكتم أهواءه، حتى أصبح يتصرف كرجل قد ناهز الخمسين، لا كشاف يتوقد حمية وشبابًا فى سن الثلاثين.



في «مرو» يجد الإنسان نفسه فى مدينة هائجة مائجة، مدينة منتشية بخمر النصر، تعج بخليط عجيب من الأجناس البشرية أهمها العرب والفرس، وقد التقى الجميع فى هذه المدينة على التأثير الإجماعى للثورة العباسية، وما زالت طوائف الجند تروح وتجىء والسيوف تلمع تحت أشعة الشمس، وإلى جوار ذلك توجد أسواق الرقيق التى تنتعش الحركة فيها عقب الحروب، والحرائر والبسط الأعجمية والمنسوجات المطرزة بالوشى والجواهر وشتى ألوان الفواكه، وبالاختصار فإن «مرو» كانت عامرة بمبانيها وتجارتها والحركة الدائبة . . إلى جانب مبانيها الفخمة الشامخة التى يختلط فيها الفن العربى بالفن الأعجمى.

ودخل «على بن أبى أميمة» «مرو» متضايقًا منهكًا فى بداية الأمر، وما أن نال قسطًا من الراحة حتى عاد إليه الهدوء، وانتعشت نفسه لمدينة الذكريات حيث قضى فترة طويلة من الوقت إبان الكفاح

الشديد ضد قوى الأمويين، ففي هذه المدينة أصدقاء كثيرون له، وفيها ذكريات لا ينساها مدى الحياة، وذكريات النصر حلوة شجية، وفيها الرايات السوداء التى ما زالت تخفق عالية مؤكدة استتباب الأمر للعباسيين، وتحديهم لأية قوة خارجة على إرادتهم، وقوتهم بالمرصاد لكل مناوئ. . إن هذه المدينة مدينة «على» برغم تنائى الديار، واختلاف الألسنة واللهجات والوجوه.

وقصد «على» من فوره إلى أحد أصدقاء الكفاح المشهورين، كان صديقه هذا كبار الدعاة للعباسيين، وكان محاربًا من الطراز الأول، وخطيبًا مفوهًا، مستميتًا فى حبه وتأييده لأهل البيت، وبعد أن انتهت مراسم الاستقبال والضيافة المألوفة مال على أذن صديقه قائلاً:

- «جئت أبحث عن رجل. . ».

- «أى رجل؟».

- «قاتل أبى».

- «لا شك أنه أموى».

- «من غلاة المشايعين للأمويين».

- «أتعرف مكانه؟».

- «بل أعرف اسمه. . ».

- «مَنْ؟».

- «إبراهيم بن سليمان»، بحثت عنه في مسقط رأسه- فزعم البعض أنه قصد «مرو». .».

- «مستحيل. . أنت تعرف أن «مرو» ليس بها أموى واحد أو مشايع للأمويين. . وحتى لو وجد واحد من هؤلاء، فلن يكون له سوى مكان واحد. .».

- «أين؟».

- «القبر أو السجن. .».

- «لكنه يعيش متخفيًا، ولا شك أنه يتزى بزى العباسيين الآن، ويضع الشارة السوداء على صدره، أو على رأسه. .».

فقال المضيف:

- «هذا أمر محيراً».

- «لن يعرف اليأس طريقه إلى قلبى».

- «يجب أن تكون منطقيًا، وغير مسرف فى التفاؤل، وقد يكون من أرشدك إلى وجوده «بمرو» لا يبغى سوى تضليلك. .».

- «إنه شبه إجماع على ذلك. .».

وأخذ الصديقان يقلبان الأمر على وجوهه، ويتدارسان أنجح الطرق للبحث عن القاتل، والقبض عليه، وأخيراً قال المضيف:

- «أنت تعرف اسمه، لكن ألا تعرف شكله؟».

- «لم يتيسر لى معرفة رسمه، ولم أجمع سوى صفات عادة غير محددة، لم ترتسم فى ذهنى صورة واضحة له..».

- «هذا ما يزيد الأمر صعوبة».

وأخذ المضيف يفكر فى الأمر بإمعان، وأخيراً قال:

- «لم أزل عند رأيى..».

- «ماذا يعنى؟».

- «سوف نذهب إلى السجن، وسنستعرض المقبوض عليهم هناك، فكلهم أمويون، ولسوف نغرى أحدهم بحسن المعاملة، أو نعده بالعفو إذا ما أدلى بمعلومات ترشدنا إلى قاتل أبيك.. هذه هى الطريقة الوحيدة، فإذا ما فشلنا، فما عليك إلا أن تترك الأمر كلية لما يحيطه من صعوبة، أو تنتقل إلى بلد آخر لتبحث عن بغيتك..».

فقال «على»:

- «حسناً فلنذهب إلى السجن أولاً..».

●●●

لم يجد «على» وصديقه صعوبة تذكر فى الدخول إلى ذلك العالم الأسود القاتم، وسار أمامها آمر السجن عبر الدهاليز والطرقات المعتمة، واقشعر بدن «على» وهو يرى تلك المخلوقات الملقاة فى إهمال وامتهان.

إن قاتل أبيه لو كان فى هذا المكان لما استحق أن يضرب عنقه بالسيف، فالسجن على هذه الصورة أبشع من القتل، أخذ يتطلع إلى الحجرات الضيقة الخاوية الضوء وإلى من فيها من البشر التعساء وهو يجوب أنحاء المكان.

هذا شيخ سجين أحنت ظهره السنون، وخبا بريق عينيه أو كاد، فلا يرى الناس إلا أشباحًا تتحرك، إنه لا شك فوق الثمانين من العمر، وصرخ فيه آمر السجن بصوت أجش:

- ألا تعرف «إبراهيم بن سليمان».

فرد الشيخ السجين، وهو يلوح بيده فى صبر نافذ:

- «لا أعرف إلا أنى مظلوم.. مظلوم.. أنتم قساة لا ترحمون شيخوختى، أين تذهبون من الله يا بنى العباس يوم لا ينفع مال ولا بنون؟

أتريدون أن تتلذذوا بحرِّ الانتقام من شيخ واهن ضعيف مثلى؟

ما ذنبى؟ ألأنى أموى ولأنى أكرهكم؟، أجل سأظل أكرهكم

وأكرهكم، وخاصة بعد تلك المعاملة السيئة، وهذا الظلم الفادح الذى لا يقره منطق ولا دين. . ».

فتركه آمر السجن ومضى، وأخذ يقول:

- «لماذا؟ . . ».

- «لأنه بشر، وستنهار مقاومته إن عاجلاً أو آجلاً».

وفى حجرة جانبية سمعوا صوتًا يصيح فى حدة:

- «الحكم لله وليس للعباسيين أو الأمويين. . ».

فقال آمر السجن معلقًا:

- «إنه داعية من دعاة الخوارج . . ».

فقال «على»:

- «الخوارج كانوا يحاربون بنى أمية مثلنا».

- «وسوف يحاربوننا إذا تركناهم، ألا تسمعه يقول، الحكم لله وليس للعباسيين أو الأمويين؟ إذن فهو لا يؤمن بأحقية أهل بيت النبى بالخلافة، بل يراها حقًا مشاعًا بين بنى البشر من المسلمين الصالحين الجديرين بها، والذين يختارهم أهل الحل والعقد من المسلمين».

ومروا برجل يتأوه، ويضغط على أسنانه من الآلام، ويفتح عينه على آخر اتساعهما ويعبر بهما عن فزعه وعذابه الذى يعانيه، ويمسك بطنه بيديه المتشنجتين ويصرخ من آن لآخر قائلاً:

- «أنقذونى . . سأموت إن الداء الذى يسكن أحشائى سوف يقضى على».

فبان التأثر والإشفاق على وجه «على» وقال:

- «لا يصح أن تتركوه يتعذب هكذا».

فانفجر آمر السجن ضاحكًا بينما استطرد «على» قائلاً:

- «أفى كلامى ما يضحك؟».

- «ما قصدت ذلك يا أخى . . إنى أضحك لأنك طيب القلب . . وقد انطلت عليك حيلته، إنه ليس مريضًا، ولكنه متمارض، وما أكثر ما يحدث ذلك فى السجن، استدرارًا للعطف، أو هروبًا عن تضييق الخناق عليهم ليعترفوا».

- «لكنه مريض فعلاً».

- «بل ممثل بارع . .».

- «وما جريمته؟».

- «كان مستودعًا للشائعات، يطلقها كذبًا فى كل مكان ليبلبل الأفكار، ويثير الاضطراب والقلق . . إنه كارثة كبرى . . كان كاذبًا فى دعاياته، وهو الآن كاذب فى مرضه . . حياته من أولها لآخرها أكذوبة كبرى . .».

ولكى يثبت لهم آمر السجن صدق نظريته، اقترب من النافذة الكبيرة ذات القضبان الحديدية، وسدد نظرات قاسية إلى السجين وهدر:

- «اقترب».

وعندما تلكأ السجين، وظل مكانه يتألم ويتأوه، صرخ آمر السجن مرة أخرى، لوح بيده فى تهديد مخيف:

- «قلت اقترب..».

وسرعان ما كف السجين عن التأوه والأنين، واقترب نحو الآمر بخطوات وجلة وتمتم.

- «أنا طوع أمرك يا سيدى».

فمد يده من إحدى الثغرات وقبض على عضد السجين فى قسوة وقال:

- «أتعرف من يدعى «إبراهيم بن سليمان»؟..».

فقال السحين بهدوء أعصاب وكأن ليس به سقم على الإطلاق:

- «والثمن؟».

- «العطف عليك..».

- «لا..».

- «فماذا تريد إذن؟».

- «العفو، والخروج من هنا . . » .

فقال الآمر فى ثورة . .

- «أتشترط علينا . . لا تنس أنك هنا سجين ذليل، إن ما لا تعترف به طواعيه نستطيع أن نرغمك على الاعتراف به . . » .

- «أقسم يا سيدى أنى لا أعرفه . . » .

- «أتخدعنى؟» .

- «أبدًا . . . أبدًا» .

- «أتساومنى؟» .

- «أعدك يا سيدى أن أنسى الأمويين تمامًا وعهدهم المظلم، وأن أكون جنديًا مخلصًا من رجال الدعوة العباسية، ودليل ذلك هو أنى سأشى بصديق العمر «إبراهيم ابن سليمان» . . » .

- «وأين هو؟» .

- «عند سيدة مسنة يقال لها «أم دمدم» . . » .

- «وأين» أم دمدم» هذه أيها الخبيث؟» .

- «هناك مسجد فى الطرف الغربى من «مرو» يجاوره بستان كبير لا أعرف اسم صاحبه، وقناة صغيرة، عليها قنطرة متهالكة، وبيتها لا يبتعد عن المسجد إلا ببيتين أو ثلاثة، وفى أعلى مكان من منزلها تخفق راية سوداء» .

- «وما جزاؤك إن كنت كاذبًا» .

- «هل هناك عذاب أقسى مما أنا فيه؟» .

- «حسنًا لسوف نرى» .

قالها آمر السجن، ثم انطلق خارجًا يتبعه «على» وصديقه، وصاح السجين من خلفهما :

- «خذونى معكم . . أين الثمن؟» .

قال آمر السجن :

- «سأعود إليك مرة ثانية» .

- «لكنك لن تعود . . وسأبقى هنا حتى الموت . .» .

- «اصمت أيها الثرثار . .» .

ولم يكن السجين كاذبًا تمامًا، فقد وجدوا بيت «أم دمدم» كما وصف تمامًا، وفتشوا موضع كل أصبع فى البيت، لكنهم لم يعثروا على بغيتهم، «إبراهيم بن سليمان»، وكل ما قالته العجوز :

- «قضى معى شهرًا . . كان بارًا . . رحيمًا بى . . لكنه اختفى فجأة كما جاء فجأة . . لا أعرف على وجه اليقين أين ذهب، لكنه يبدو أنه كان ينتوى الذهاب غربًا، ولعله يقصد «الكوفة»، فله فيها صحبة وأقرباء . . هذا ما كنت أفهمه من حديثه، لكن أخبرونى أيها الجنود، لماذا تبحثون عنه؟ لقد كان رجلاً سمحًا طيبًا لأبعد الحدود . .» .



حانت لحظة تناول الطعام، وجلس «حسان» ينتظر على أحر من الجمر لقد قرر قرارًا حاسمًا وهو ألا يقيم أية علاقة مع الجارية؛ لأنها ليست ملكه أولاً، ولأنه يأبى الخروج على السياسة التى رسمها لنفسه، ومع ذلك فقد كان قلبه يدق، فالشوق إلى رؤياها قد برح به، واقتنع أخيرًا بأن يكتفى من هواه الدفين بمجرد النظر.

ولا شيء غير ذلك، وليمارس ذلك النوع من الحب العذرى الذى مارسه «مجنون ليلى» و «كثير عزة» و«جميل بثينة».

ذلك الحب العفيف النظيف الذى تحدث به الركبان، ولكن المجانين الثلاثة لحسن حظهم شعراء يجدون متنفسًا فى الشعر من قلق نفوسهم، وحرقة أشواقهم، وعذاب حرمانهم، أما «حسان» فليس لديه موهبة الشعر، فليقاسى الجوى.. دون أن يطفئ لسانه بكلمة واحدة تفرج عن مكنون لوعته ودون أن يطفئ شوقه بشىء، وهكذا أراد له الله أن يغسل طموحه السياسى، وأن يظل حبيس

نفسه في هواه المشتعل وما عليه إلا إن يصبر ويداري . . وجاءت «ياسمين» على استحياء وكانت هذه المرة أكثر أناقة وأشد فتنة، ولم يخف اضطراب حركاتها على «حسان» ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة، وإن انبعثت قشعريرة لذيذة في جسده، وكم كانت سعادته عندما سمعها تقول بنبراتها الحنون الدافئة :

- «أرجو أن يعجبك طعامي» .

فوجد نفسه يقول :

- «لقد فاق حد الروعة والجمال . . » .

لم يكن ينظر إلى الطعام وهو يتفوه بهذه الكلمات، بل كان يسدد نظراته الجائعة إلى وجهها الذي أصبح متورداً جذابًا . . وعادت تقول :

- «إن أردت الحصول على أي شيء تستطيع أن ترسل العبد «ميمون» إليّ لقد أوصاني سيدي أن أقوم بخدمتك في أي وقت، وأوصى أن تكون كل طلباتك مجابة» .

كانت هذه الكلمات أكثر مما ينتظر، وأسعده أن يستمع إلى حديثها، وأن يتملى في تقاطيع وجهها، ولم يستطع أن يرغم نفسه على الصمت أو الاقتضاب في الحديث حسبما رسم لنفسه من سلوك ولكنه اندفع يقول وقد نسي كل ما صمم عليه :

- «يسعدنى أن أعرف اسمك».

- «أنا خادمتك . . هكذا أمر سيدى».

- «لم أعرف اسمك بعد . . ».

فطأطأت رأسها فى خجل :

- «هل هذا يهمك؟».

- «ألا يتعارف الناس؟».

- اسمى «ياسمين».

- «ياسمين» اسم لطيف .

وهبط عليهما «ميمون» كالنبأ المشئوم وقال :

- «أتريد شيئًا يا سيدى «حسان»؟».

قال حسان فى ضيق :

- «أنا لم أستدعك».

فبان الامتعاض على وجه العبد الحبشى، ورمق «ياسمين» بطرف عينيه فى غيظ متقد وتمتم وهو يغادر الحجرة :

- «معذرة ياسيدى، أنا فى خدمتك دائمًا، وفى أى وقت تشاء . . ».

ومضى لكن «ياسمين» أسرعت قائلة، وهى تعطى الضيف ظهرها:

- خذنى معك يا «ميمون».

فافتر ثغر العبد الأسود عن ابتسامة سعيدة، وحدثته نفسه بأمنيات طالما داعبت أحلامه، واتسعت ابتسامته فى بلاهة، وهو يفسح لها الطريق، وسار إلى جوارها والدنيا لا تكاد تسعه من الفرحة ولم تحاول «ياسمين» أن تعكر عليه صفوة، أو تسخر من سواد بشرته، وحطة منزلته، بل رأت من الأوفق أن تكسبه إلى صفها لا ميلاً إليه، وحبًا لشخصيه بل كياسة منها، وهى كياسة أقرب ما تكون إلى الخبث والخداع، فماذا عليها لو رمت إليه بالفتات، أو جادت عليه بابتسامه أو كلمة طيبة؟.

وعادت «ياسمين» إلى حجرتها، وهى لا تستطيع أن تبعد شبح «حسان» عن ذهنها، وأمسكت بعقلها متلبسة بالتفكير فيه أكثر من مرة، على الرغم من مقاومتها، وإصرارها على موقفها، وهمست فى حرارة وألم:

- «آه كثيراً ما تخطئ يا قلبى، ترى متى تتوب وترجع عن نزواتك؟».

ألا يكفيك ما مر بك من آلام وأحداث مريرة بسبب الحب؟

وتحاول «ياسمين» أن تناقش الأمر بينها وبين نفسها، وتتساءل: أليس «حسان» رجلاً كالرجال؟ سيدًا كمولاها «على بن أبى أميمة»؟ وهى مجرد جارية اشتراها من سوق الرقيق؟ فلماذا يحاول قلبها أن ينفتح من جديد، ويراوده الأمل ويطرب لهمسات الغزل والحب؟ لا شك أن قلبها مجنون نَسّاء، يحاول أن يتجاهل المصير المظلم الذى أية جارية مثلها لا تعرف حقيقة وضعها، ولماذا يحاول «حسان» أن يجاذبها أطراف الأحاديث، ويقيم معها علاقة عاطفية؟ أهو جاد حقيقة فيما يعتزمه؟ أم أنها مجرد تسلية وإزجاء لوقت الفراغ؟ وظلت «ياسمين» و«حسان» على هذه الحالة، يقتربان بقلبيهما، ويبتعدان بعقليهما، وكل منهما يحاول جاهدًا أن يصرع هواه، ويكتم رغبات نفسه الدفينة، وكان عزاؤهما أن الإنسان لا يستطيع - إزاء الظروف القاهرة - أن يحقق كل ما تصبو إليه نفسه، فما أكثر الرغبات الحبيسة فى قلب البشر البائسين..

وذات مساء، دعا «حسان» «ميمونًا»، وكان «ميمون» فى هذه الفترة يحاصر «ياسمين»، ويتبعها فى أغلب الأحيان، وطلب منه أن يذهب لمقابلة أحد التجار وإبلاغه رسالة تتعلق بالعمل، وبعد أن انصرف أقبلت «ياسمين» وكان موعد تناول الطعام قد حلّ، وعندما كانت تضع الطعام على الخوان قال «حسان»:

- «تعرفين أن قلبى يضطرم بأمنيات غالية..».

ولمّا لم تجب استطرد:

- «إن حبى لك لا يمكن إخفاؤه أو كتمانه».

فالتفتت إليه وقالت فى رعب:

- «كيف تقول هذا الكلام؟».

- «إنه حقيقة».

- «أرجو ألا تكلمنى فى هذا الأمر ثانية».

- «لماذا؟».

- «لأنك تعتدى على الرجل الذى آواك فى بيته».

- «وهذا ما يعذبنى يا «ياسمين» . . لكننى قاومت طويلاً دون جدوى».

لكأنما كان «حسان» يعبر عما يجيش بنفسها، وما تقاسيه خلال تلك الأيام وتمتمت فى ألم:

- «ليس لى الحق فى أن أحبك . . وأظنك فى وضع لا يختلف عنى كثيراً».

- «أفهم من ذلك أنك لا تحبيننى؟».

فابتعلت ريقها، وازدادت ضربات قلبها، وقالت متلعثمة:

- «لا أعرف . . لا أعرف . .».

وهمّت بمغادرة الحجرة، لكن «حسان» اندفع نحوها، وأمسك بذراعها، وقال فى نبرة توسل:

- «لماذا تهربين؟».

- «إنه تصرف شائن».

- «أريد أن أعرف شعورك نحوى».

- «أنا مجرد جارية..».

- «الحب لا يعرف هذه المقاييس..».

- «تجاهلها غباء منا..».

- «ما هذا الذى تقولين يا «ياسمين»؟ أستحلفك بأعز شىء لديك أن تخبرينى بمكنون نفسك، هل تعلق قلبك بإنسان آخر؟»، فقالت فى نبرة حزن: «بقلبى فراغ وقلق».

- «وكيف يتفق الفراغ مع وجود القلق.. القلق يا حبيبتى يحمل أكثر من معنى، لعله الحب مثلاً».

فهمست:

- «يجب أن أرحل».

- «لماذا تصرين على تعذيبى..».

- «أنا عاجزة لا أستطيع أن أفعل شيئًا».

- «بل تستطيعين».

- «ماذا؟».

- «قولى لى كلمة واحدة . . كلمة تبعث الراحة فى قلبى، وبعدها تستطيعين أن تنصرفى».

ولـمّا لم تجب، اقترب منها وهمس:

- «مرة ثانية . . هل تحبيننى؟».

فالتفتت إليه والدموع فى عينيها:

- «أهى مجرد نزوة لما تعانية من فراغ؟».

- «أقسم أنى أحبك بكل جوارحى، ومستعد لأية تضحية».

- «كلامك يفتقر إلى دليل».

- «"ياسمين" . . انظرى إلىّ . . فى عينى . . وضعى يدك على قلبى . . ثم اسالى قلبك . . إن لقاء أرواحنا قد سبق هذا اللقاء . . لقد أصبحت يا "ياسمين" شغلى الشاغل . . تترائين لى فى حجرتى هذه . . وفى الشارع وفى المتجر . . فى اليقظة . . وفى النوم . . أنا لم أعرف الحب قبل ذلك . . لقد اسأثر طموحى واشتغالى بالحرب والسياسة كل وقتى . . أنت يا"ياسمين" أول نغمة حلوة يطرب لها سمعى . . وأول نسمة رطبة حنون تطرب روحى المعذبة، لقد

قاسيت الكثير من العذاب والخوف والضياع، أما الآن فأنا أشعر إلى جوارك بكل معانى السلام والطمأنينة. . ».

فصرخت وقد أغرقت عينيها:

- «كفى. . . كفى. . ».

فقال فى صوت خفيف: «ماذا قلت يا «ياسمين». . ».

- «لاتنتظر منى جوابًا. . ».

- «ما معنى ذلك. . ».

- «ليس له سوى معنى واحد».

- «وهو. . ».

- «أنى أحبك».

وحاول أن يطوقها بذراعيه، لكنها دفعته فى غير ما عنف وقالت:

- «لكنك يجب أن تفكر فى حل».

- «أى حل تقصدين؟».

- «الحب هو الزواج، ولم يكن حبنا مجرد استراق للحظات السعادة والهناءة، هذا هو رأيى الأخير. . ».

فقال «حسان» فى لهفة صبيانية:

- «أنا على استعداد للزواج منك فى أية لحظة . . » .

- «لكن لا تنسى أنى ملك مولاى «على بن أبى أميمة» . . » .

فشعر «حسان» بمزيد من الضيق وتمتم :

- «مشكلة المشكلات . . » .

قالت «ياسمين» وهى تندفع خارجة :

- «لهذا فأنا لا أقرك على حب وهمى ليس له سوى معنى اللذات المختلسة . . هذا حب لا يشرفنى ولا يشرفك ، سأتركك إلى أن تبحث عن حل . . وتذكر أن رجلاً آخر قد اشترانى بماله ، وأننى له وحده» .

●●●



عاد «على بن أبى أميمة» من «مرو» تلفُّ أمانيه أحزان غامضة، وكان غموضها من صنع نفسه، ويريد أن يعترف بالحقيقة المرة . . لقد شاهد أثناء رحلته بعض مظاهر العنف والقسوة التى اقترفها المنتصرون . . العباسيون، وقد كان يظن أن سياسة كهذه ربما تجد لها ما يبررها أثناء نشوب المعارك، أما وقد وضعت الحرب أوزارها، وانتهت المعركة بهزيمة الأمويين وقيام الخلافة العباسية، فليس هناك ما يدعو إلى إراقة الدماء، ومطاردة الأعداء، والانتقام من كل ذوى الآراء المخالفة، وقد كانت لجولته فى السجن، ومشاهدته لعدد من الضحايا المسجونين أسوأ الأثر فى نفسه . .

والأدهى من هذا كله أنه لم يعثر على بغيته، ولم يلتق بقاتل أبيه «إبراهيم بن سليمان» . . ها هو يتنقل بين «الكوفة» و«الحيرة» و«مرو» يقضى النهار أسفاراً وبحثًا، ويمضى الليل أرقًا وأفكاراً، ورغبة الثأر تشعل كيانه، وتملأ قلبه بالحقد والغيظ، ولا فائدة . .

وتذكّرَ الرجل الصوفى «زين الدين» ، لم يستطع أن يبعد صورة الرجل عن ذهنه منذ أن رآه أول مرة ، إنه نموذج فريد من الرجال ، لا يشغل باله بحقد على أحد ، ولا يفكر فى الثأر والحرب ، بل رمى الدنيا خلف ظهره ، وودع المال والأهل والولد ، وهرب بنفسه بعيداً عن المطامع والزيغ والدماء والصراع المدمر من أجل نعيم الحياة الزائل ، إن السلوك الصوفى قد يكون بعيداً عن واقع الحياة ، متناقضًا مع إراده الله فى البناء والعمران وجلب الرزق . . مخالفًا لنصوص الدين الصريحة التى تأبى الرهبانية والعزلة ، ومع ذلك فإن الهروب الشجاع والانقلاب من مغريات الحياة ولذائذها ، وعدم المشاركة فى الصراع الدامى الذى يرتكب الحماقات والمظالم ، كل هذه الأشياء تعنى قوة إرادة هائلة لا يستطيعها إلا نوع معين من الرجال .

ماذا يفعل «زين الدين» إزاء تيار رهيب مدمر لا يمكن التغلب عليه؟ إن المقاومة فى مثل هذه الأحوال مقاومة بائسة لا نتيجة لها ، فيلجأ الشيخ إذن إلى نوع آخر من الاحتجاج ، نوع سلبى المظهر لكنه قوى الدلالة .

فوجد «على بن أبى أميمة» نفسه مدفوعًا إلى المرور على الشيخ فى صومعته ، اندفاع الظامئ إلى ورود الماء .

ووقف بباب الكوخ ؛ كان الشيخ يؤدى الصلوات ، ويردد

الدعـوات، ويرفع يديه النحيلتـين صوب السـماء، وانتظر «على» طويلاً حتى أفرغ الشيخ من صلواته ودعواته، ثم اقترب منه وألقى السلام، فرفع الشيخ إليه عينين نديتين وتمتم:

- «ها أنت تعود».

- «تعلق قلبى بك..».

- «وهل عثرت على بغيتك؟».

- «لا..».

- «ولن تجدها..».

- «لماذا؟».

- «لأنك تبحث عنها بعيداً، وتتجشم الأسفار والأهوال، وهى أقرب إليك من حبل الوريد».

فتنهد «على» وقال:

- «أنت لا تعرف ما بى».

- «أعرف أنك مريض..».

- «كيف؟».

- «ومظاهر الاعتلال فى عينيك.. إنهما نافذتان أطل منهما على ما يعتلج فى نفسك..».

فقال «على» وقد جرفته موجة صوفية طاغية:

- «حدثنى عن الله..».

فتربع الشيخ، وأجفل جفنيه، وأخذ يتلو بضع آيات من القرآن الكريم:

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

- «زدنى..».

- ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فقال «على» وقد شحب وجهه:

- «زدنى أيضًا..».

- ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

- «زدنى..».

- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ

مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

وأخذ «على» يردد الآيات القرآنية بصوت راعش خفيض.. وما أن انتهى من ترديدها حتى سمع الشيخ يقول:

- «لا أستطيع...».

- «لا.. أنت لا تريد..».

- «لأنى أبحث عن غيرها..».

- «عندما تجدها فسوف تصل إلى بغيتك، نفسك عالم واسع كبير، ووضع يدك على سرها إفشاء لكل الأسرار الخفية، وبلوغ الكل الأهداف، ترى متى يرق قلبك؟ متى الحقيقة؟».

- «إنى أرى الدنيا كلها، وهى أكبر حقيقة كائنة».

- «كيف تزعم أنك ترى الدنيا كلها، وأنت لا ترى نفسك؟ أنسيت أن الحقيقة الكائنة التى تتحدث عنها لم ترشدك إلى شىء تافه صغير.. إلى قاتل أبيك؟».

فتمتم «على» فى حسرة:

- «أجل.. قاتل أبى.. إنه الشوكة الأزلية التى تظل تُدمى جسدى مساء صباح..».

فقال الشيخ «زين الدين» فى شىء من الضيق:

- «إذن.. عد إلى دنياك يا مغرور..».

- «دون أن أتناول جرعة من لبن، أو بضع تمرات؟».

- «لا داعى.. لأنك ستظل جائعًا..».

- «أذن أستودعك الله..».

وهمَّ «على» بالرحيل، فهتف الشيخ:

- «انتظر.. إليك التمر والماء..».

- «لكنها آخر ما لديك..».

- «لقد شبعت..».

وشرب «على» وأكل التمرات.. ومضى فى طريقه صوب الكوفة.

●●●

اقترب «على» من قصره، كانت آلاف المشاعر تموج فى قلبه، وعديد من الأفكار تضطرم فى رأسه، وبدا له أن كلمات الشيخ «زين العابدين» قد تركت فيه أثرًا لا يمحى. وأصبح ضائقًا بكل شىء بالعباسيين.. انتصارهم الكبير، بمأساة الثأر التى يتلظى فى

جحيمها، بقصره وجواريه والنعيم الذى يبدو فى كل ركن من أركانه.

وأخذ يناقش بينه وبين نفسه مسألة الزهد والزاهين، إنها كما تبدو له.. العلاج الناجح.. والشفاء لكل داء فى دنياه التى لا يجد فيها السعادة والراحة، وآفاق من أفكاره على ضجة منبعثة قرب القصر، ورمى ببصره فرأى «وعد» تجرى فى الشارع كشاة سمينة، وأبو لؤلؤة يطاردها كتيس أرعن ويصرخ فى ثورة:

- «قفى أيتها البلهاء..».

فتصيح دون أن تتوقف:

- «لن أبقى فى بيتك بعد اليوم دقيقة واحدة..»..

ووجد «على» جمعًا من الأطفال يتابعونهما ويحاصرونهما من كل مكان، وضحكاتهم تملأ الأفق، وتعليقاتهم اللاذعة تنتزع الضحكات من شفاه المارة، وعندما وصلت «وعد» إلى باب القصر، أخذت تدقه فى لهفة وتسرع، وقبل أن يفتح الباب، كان «أبو لؤلؤة» قد لحق بها، ثم تشبث بخصلات شعرها، وإخذ يشدها إليه فى عنف، وهى تصرخ وتستغيث، فيسارع بضربها بكفه فوق فمها كى تكف عن الصياح، ويقول:

- «كان جنونًا أن أتزوج بلهاء مثلك..».

- «طلقنى إذن . . ».

- «ومن أنت حتى تطلبين الطلاق؟».

- «ستعرف من أنا عندما أجد سيدى . . ».

- «لا سيد لك غيرى أيتها المجرمة . . »

وتوقف «على» بجواده، وانفتح باب القصر، وتحولت العيون إلى سيد القصر، وكف «أبو لؤلؤة» عن الضرب، كما توقفت «وعد» عن الصياح، وهتفت فى مواجهة مولاها القديم:

- «أضرع إليك يا مولاى . . ».

- «ما هذه الضجة؟».

- «تركنى ليلتين دون زاد . . بقيت وحدى فى بيته الخرب . . كانت الأشباح والجوع يعذباننى . . انتظرت حتى عاد . . وقد جئت إليك لتنقذنى من عذابى!!».

فتدخل «أبو لؤلؤة» قائلاً:

- «وما ذنبى؟ كنت أبحث عن الرزق وفشلت . . القصائد فى جيبى، لكن أمراء الكوفة لم يتذوقوا شعرى لأنهم أغبياء . . ».

- «شعرك لا يعجبهم . . ».

- «لكنه يعجبنى . . ».

- «هذا لا يهم. .».

- «أتظنني أكتب الشعر كما يريدونه. . إن لِفَنِّ الشعر أصولاً. .».

- «أنت تطهو وهم يأكلون. . ويجب أن يكون الطعام حسب مزاجهم. .».

- «فليذهبوا إلى جهنم. . لقد عدت دون أن أستفيد منهم بدرهم واحد. .».

فقال «على» ضاحكًا:

- «هيا بنا إلى الداخل. . سيكون كل شيء على ما يرام. .»

●●●



قضى «على» ليلة ممتعة بعد عودته من «مرو»، وكان مصدر المتعة هو المشاحنة التى نشبت بين «وعد» وزوجها الشاعر سيئ الحظ، وكان «أبو لؤلؤة» يعزو كل ما حدث إلى جهل «وعد» وعدم فهمها لرسالته كشاعر كبير، وعدم تقديرها لأدبه.

وكانت «وعد» تثور فى وجهه، وتتهمه بالهروب من المشكلة الرئيسبة، ألا وهى عدم استطاعته تهيئة أسباب العيش الكريم لنفسه ولها، وكانت تبدى سخريتها من شعره، وتريد مصدراً ثابتًا للرزق، تريد عملاً ماديًا تلمسه، يبذل فيه جهده وتكون نتيجته معروفة سلفًا، وتضايق «أبو لؤلؤة» وهو يستمع إلى كلماتها الساذجة اللاذعة، وهتف:

– «أنت فى حاجة إلى درس قاس فى الأدب».

– «بل فى حاجة إلى لقمة العيش، تفرض علىّ الجوع والفقر وتريدنى أن أصمت؟! مستحيل..».

- «أيتها الغبية، أصحاب الرسالات يلاقون دائمًا هذه المتاعب، ولا يعترف الناس بفضلهم إلا بعد مشقة؛ لأن جماهير الناس أغبياء مثلك تمامًا، لقد ازددت إيمانًا بنظرتى هذه بعد أن رأيتك، أنت - زوجتى، وتتنكرين لموهبتى؛ لأنك لم تجدى الرغيف فى يوم من الأيام..».

فقالت «وعد» فى ثورة:

- «وما شأنى أنا بموهبتك.. كل ما أعرف هو أن لك ذراعين قويتين، وجسمًا مكتمل البناء، وتستطيع أن تحطم الصخر، فلماذا لا تكسب قوتك بعرق جبينك؟ أنت كسول، وكسلك سيتركنا نموت جوعًا..».

قال «أبو لؤلؤة» فى حسرة:

- «يا ضيعة الفكر مع امرأة بلهاء تنظر إلى الجسوم ولا تقدر العقول..».

- «أعطنى خبزًا.. ثم ترنم بالشعر صباح مساء، سيكون شعرك عند ذلك شعرًا رائعًا حقًا..».

فكاد «على» يستلقى على ظهره من الضحك، بينما قال «أبو لؤلؤة»..

- «حق لك أن تضحك.. أنت السبب فى إيقاعى بهذه

الكارثة . . إن مستواها دون مستواى بكثير ، ومن أين لهذه البلهاء أن تفهم روعة الشعر وحلاوته وهى جارية أعجمية . . » .

قال «على» وهو يكتم ضحكاته :

- «لكن منطقها أقوى من منطقك . . » .

- «هى فى وادٍ وأنا فى واد آخر ، تهتم بزاد معدتها ، وأنا أجود كل يوم بزاد الأرواح التى تفهم الشعر . . كان زواجى أكبر كارثة حلت بى فى حياتى ، وإن استمر الحال على هذا المنوال ، فسأفقد قدرتى على صناعة الشعر كلية . . » .

وأخذت «وعد» تضرب على بطنها الذى ازداد تكوّره وانتفاخه وهى تقول :

- «سيترعرع هذا المسكين فى ظل البؤس والحاجة . . » .

ثم التفتت إلى «على» قائلة :

- «ألا تقبلنى يا سيدى خادمة فى قصرك؟ لقد ضقت ذرعًا بالحرية التى قذفتم بى فى لهيبها . . » .

فهتف «أبو لؤلؤة» مهتاجًا :

- «أنت حيوان أعجم ، وأنا لا أبيح لك الخدمة بقصر أحد . . » .

فرد «على» قائلاً :

- «وأنا لا أردها عن قصرى، فليس ذلك من دأبى» .

قال «أبو لؤلؤة» :

- «لكنى صاحب الحق الشرعى عليها . . » .

فقاطعته قائلة :

- «تتكلم عن حقك ، أما أنا فلا حق لى فى شىء؟!» .

وبدت «ياسمين» قادمة من بعيد، فلمحها «أبو لؤلؤة»، ثم مال على أذن «على» هامسًا :

- «لو كانت هذه الوردة اليانعة من نصيبى لأغرقتها فى الحرير والذهب . . مثل هذه إذا ما دخلت بيتى وفد معها الثراء والنعيم والسعادة . . » .

وأراد «على» أن يعقد الأمور متعمدًا، فصاح بـ«ياسمين» :

- «تعالى يا «ياسمين» لقد جاءك «أبو لؤلؤة» خاطبًا . . » .

فتلعثم «أبو لؤلوة»، وظهر على وجهه الارتباك، وتمتم :

- «لا لا يا سيدى . . هذا كثير . . لم أقصد سوى الدعابة . . » .

وقالت «وعد» وقد اكفهر وجهها حنقًا :

- «لا ينفعه سوى امرأة تنفق عليه . . » .

فلم يتمالك أعصابه، ورفع يده إلى أعلى ثم صفعها صفعة قوية وهو يصيح في ضيق:

- «الضرب هو اللغة الوحيدة التي تفهيمنهما..».

فقالت وقد انهمرت الدموع من عينيها:

- «وأعرف لغة أخرى.. لغة شعرك الذي يقابل بالاستهزاء والسخرية والإعراض عنه في كل سامر وناد..».

وهمّ بأن ينقض عليها كي يقبض على عنقها، ولكن «علي بن أبي أميمة» أمسك به في آخر لحظة، وأجلسه حيث كان، ولم يكن «علي» يستطيع أن يمنع ضحكاته التي تهزه هزًا، وتنطلق على الرغم منه، وحينما أقبلت «ياسيمين»، قال «علي»:

- «ماذا قلت يا «ياسمين»؟».

- «السمع والطاعة لكل ما يأمر به مولاي..».

فتدخل «أبو لؤلؤة» قائلاً:

- «أقسم لو وافقت فستكون «وعد» طالقًا منذ الآن..» وقبل أن يفيق إلى نفسه انقضت عليه «وعد»، وأهوت بأسنانها على كتفه، وأمسكت بلحمه بين نواجذها، فصرخ متألمًا، بينما ضج الجلوس بالضحك، ولم تستطع «ياسمين» أن تحبس ضحكاتها، ورأت في

عينى سيدها رغبة ملحة فى التمادى فى المرح، وحرصت هى الأخرى أن تزيد من تعقيد الأمور، فقالت أمام دهشة الجميع:

- «وأنا قبلت الزواج من «أبى لؤلؤة» فوقف الشاعر، وهو يضع يده على كتفه مكان العضة، وترمح كسكران وهو يلوح بيده الأخرى، ويصيح:

- «أنت طالق يا «وعد» . .».

فانفجرت «وعد» باكية، بينما اختلطت ضحكات الجميع، ووقف «أبو لؤلؤة» بينهم خطيبًا، وأخذ يترجل أبياتًا من الشعر، يتغنى فيها بجمال «ياسمين» وخفة روحها، وينصب الجزء الأكبر منها على هجاء «وعد» وسبها، والإنقاص من كرامتها كأنثى.

وقاطعته «ياسمين» قائلة:

- «لكن «وعد» أختى، ولا أقبل إهانتها أو التعرض لحياتها الزوجية بأذى».

قال «أبو لؤلؤة»:

- «هى كَمٌّ مهمل . . لا قيمة لها . .».

- «كنت أمزح . . .».

- «هل تراجعت عن وعدك لى بالزواج؟».

- «وهل للجارية أن تتزوج؟».

- «لكن مولاك لا يمانع..».

فأردف «على» قائلاً:

- «إن تجربتك فى الزواج يا «أبا لؤلؤة» غير مشجعة..».

- «لكنى طلقت «وعد»..».

- «سأستدعى أحد العلماء لردها..».

- «لكنى لا أريدها..».

- «إذا أصررت على موقفك، فلن تعود إليك مطلقًا، ولن يكون لك فى قصرى مكان بعدها.. ماذا قلت؟».

فأخذ يزفز فى ضيق، ثم حانت منه التفاتة إلى «وعد» الباكية، والتى لم يبد عليها أنها استملحت تلك الدعابات القاسية، وقال:

- «حقًا.. آسف لما حدث.. إن «وعد» لى، وأنا لها، ولا مانع لدى من ردها، لكنى أرجو من سيدها أن يسعى لى فى الحصول على عمل بالديوان..».

فقال «على»:

- «لك ذلك».

- «متى؟».

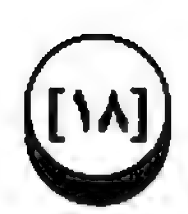
- «غداً إن شاء الله . . » .

فاقتربت «وعد» من سيدها ، واختطفت يده ، وأخذت تقبلها فى حرارة وتؤكد اعترافها بالجميل ، وأخرج «على» من جيبه صرة مليئة بالدراهم ، وقذف بها إليها ويقول :

- «هذه لك أنت ، وليست لـ«أبى لؤلؤة» . . » .

- «أطال الله بقاءك يا مولاى . . » .

●●●



قـالت «ليـاء» وهى تتـمطى علـى سـريرها، وترمق «عليّـا» من طرف خفى:

- «ألن تكف عن الأسفار؟».

- «وكيف يقر لى قرار؟».

- «هذا فى يدك أنت..».

- «عندما أجده يطمئن بالى..».

- «لكنه قدر الله..».

- «لست أدرى أين إذن إرادتك كإنسان حر».

- «القدر والإرادة بينهما خيط رفيع، إنهما يتداخلان، ولا يتعارضان كثيراً لمن يفكر فيهما تفكيراً عميقًا..».

- «كلامك يفتقر إلى الدليل..».

- «لماذا؟».

- «مثلاً . . أمرك يهمنى وأريد أن تكف عن إرادتك، لكن إرادتى شبه مشلولة فى هذا الأمر الذى يخصك، فهو بالنسبة لى قدر لا فكاك منه، لكنه بالنسبة لك مرجعه إلى إرادتك . . وعاد «على» يقول:

- «إنها إرادة الله . . الإرادة الكلية التى نسير بتوجيه منها . . ».

واستلقى «على» يحملق فى سقف الحجرة الهادئة الناعمة، واستلقت زوجه إلى جواره تفكر فى هذه المأساة التى تشكل خطراً كبيراً على مستقبلها ومستقبل زوجها وولدها «حاتم»، كانت كل يوم تحاول أن تصرفه عن غلوائه وتهون له أمر موت أبيه، وتدافع عن «ظروف العصر» القلق المضطرب، والذى يدفع إلى الأخطاء الصغيرة والكبيرة على حد سواء، وينعكس على نفوس البشر، ويشكل سلوكهم وأحكامهم على الأشياء، وكان «على» لا يعير تفسيراتها أدنى اهتمام، ويظل مصراً على الأسفار باحثًا عن قاتل أبيه، وما كان أبوه بالرجل الصغير الشأن الذى يذهب دمه هدراً، ولقد حدث تطور مهم لم تدركه «المياء»، وفى الوقت نفسه لم يعترف به «على» صراحة، فقد أصبح «على» ضيق النفس لم يعترف برحلاته وأسفاره، وأصبح خروجه أول النهار وعودته فى المساء طلبًا لدم القاتل، من الأمور التى تثير حنقه، وفكر يومًا فى أن

يكف عن هذا العناد، ويجنح إلى الصفح، وتسليم الأمر لله، لكن كبرياءه أبت عليه أن يفكر فى شىء قد اتخذ فيه قراره من قبل، وخجل أن يأتى أسبوع أو شهر، وهو جالس فى قصره لا يبحث عن قاتل أبيه، كان هذا التحول خطيراً فى حد ذاته، وإن لم يغير فى الأمر شيئًا، فهو يسافر ويبحث ويتحرك ويترك وراءه زوجه وطفله وقصره، ويكل أمر تجارته إلى «حسان بن نافع» ويعود بعد كل رحلة مرهقًا مكدودًا وترتسم عل محياه أمارات الشقاء، وبقيت «لمياء» ترقب الأمور بعين قلقة، لماذا يصر زوجها على فعل ذلك؟ وهل هو يحبها حقيقة؟ لو كان يحبها لما انصرف عنها هذا الانصراف، ولما ألح فى طلب دم القاتل، إن الحب إذا ما استقر فى القلب، واستولى عليه، صرف صاحبه عن كل شىء ما عدا حبيبه، وأصبح المحبوب عالمه وأمانيه لا يعيش إلا له وبه، ولابد من التفكير فيه، ويحاول جاهداً أن يبقى إلى جواره؛ لأن أسعد اللحظات، وأكثرها نبضًا بالحب والسعادة والنشوة هى لحظات اللقاء بين حبيبين يعيشان فى ظلال الحب الصادق. . آه لشد ما تخاف «لمياء»!! ماذا لو كان حبه لها مجرد ارتباط قديم، أو عاطفة باردة بين زوجين طال بزواجهما العهد، أو مجرد شفقة لإنسانة أحبته وأخلصت له الود؟

لكن زوجها شجاع، لو كان يكرهها لقذف فى وجهها بالحقيقة المرة، لكنه لم يفعل ولم تستطع «لمياء» الوصول إلى الحقيقة،

الحقيقة التى تبحث عنها، وتدمى فؤادها، ويحترق قلبها الحائر فى وهج العذاب النفسى الرهيب، وتمتمت «المياء» فى حسرة:

- «كنت أخاف أثناء الحرب أن أفقدك، فأعيش بعدك عيشة الضياع والقلق.. ها أنت قد عدت من الحرب.. لكنى.. برغم نجاتك وعودتك.. قد فقدتك.. أجل فقدتك».

فقال «على»:

- «إن هذا الوهم يجلب علينا المتاعب.. أنا إلى جوارك، وغيابى بضع ساعات لا يعنى فقدانى..».

- «لا يا زوجى العزيز.. إن قلبى يحدثنى حديثًا لا أستطيع التصريح به، إنه حديث رهيب مزعج، إن جسدك معى، وروحك هائمة فى آفاق لا أعرف عنها شيئًا، أرى ذلك واضحًا جليًا فى عينيك، فى صمتك وفى لقائك مع الآخرين... ربما تضحك وتملأ القصر ضجيجًا، وربما تناقش الأمور فى جرأة وتشد إليك الحاضرين بقوة منطقك ونبرة صوتك القوى، لكنى ألمح شيئًا غير هذا كله.. أرى غيابك عنا، وفقداننا لك، حتى خُيِّل إلىّ أنك أصبحت رجلاً غريبًا حقًا..».

وضاق «على» ذرعًا بتعليقاتها وآرائها التى تحمل بذور الشك والريبة، ومن ثم أعطاها ظهره ووضع يده تحت رأسه، محاولاً النوم وهتف:

- «هذه كلمات يائسة تتلفت حولها فلا تجد زوجها. .».

- «وأنا إلى جوارك؟».

-«وأنت إلى جوارى، وهذا ما يفزعنى. .».

- «يجب أن تكونى عاقلة. .».

فتاهت بنظراتها إلى بعيد، وهى جالسة إلى جواره على السرير، وأخذت تقول:

- «ماذا جرى؟ لقد فسدت الحياة تمامًا، وأصبحت ممتلئة بالكذب والمتناقضات، لقد دفعنى بعدك عنى إلى الإدمان فى التفكير، ومراقبة الناس، إنى أراهم يعبرون تعبيرًا خاطفًا -أعنى كاذبًا- عما يعتلج فى نفوسهم - ويقولون خلاف ما يضمرون، الخوف علمهم النفاق، والنفاق يجرهم إلى الكذب، ولهذا فالجميع يعيشون مأساة واحدة. . لست أخاف، ولكن ما أره يرعبنى».

قال وقد أوشك أن يستولى عليه النوم:

- «يجب أن تدعى هذه الأوهام وتنامى. .».

- «أنام؟!».

- «أجل».

- «أنت لا تشعر بى.. وربما تسخر منى..».

وأخذت أنفاسه تنبعث هادئة رتيبة، وظلت «المياء» جالسة إلى جواره شاردة النظرات تحاول أن تتخلص من أفكارها السوداء دون جدوى، وأخذت تردد فى أسف وحسرة:

- «إنه يهرب منى.. إنه لا يحبنى..».

●●●

حينما دقت باب الحجرة فى الخارج، ارتعدت فرائصها، إذ كانت متوترة، مشدودة الأعصاب، كما استيقظ زوجها -الذى لم يكد يستسلم للنوم- عندما انهمر صدى الدقات العنيفة فى أذنيه، وصاحت «المياء» فى ضيق:

- «من هناك؟».

- «أنا «ميمون» يا مولاتى..».

- «ماذا تريد فى هذا الوقت؟».

- «لقد وصل الساعة خادم مولاى «الشيخ عبد الله» يحمل رسالة مهمة ويلح فى طلب لقاء سيدى..».

فهبت واقفة وقد شحب وجهها، وهتفت:

- «رسالة من أبى؟».

- «أجل..».

ووثبت صوب الباب، وعندما فتحته كان زوجها إلى جوارها، ووقفت تنظر إلى «ميمون» والخوف يرتسم على ملامحها وفى عينيها المفتوحتين وصاحت:

- «هل أصاب أبى مكروه؟».

قال «على»: لـ«ميمون»:

- «إلىّ بالرسول حالاً..».

أمسك «على» بالرسالة، ونشرها أمامه، وبقيت «لمياء» واقفة على مقربة منه، لا تجسر على أن تشاركه فتح الرسالة وقراءتها، وأخذ «على بن أبى أميمة» يقرأ بعد الديباجة:

- «.. أما بعد، فقد داهم بيتنا -ذات مساء- رجال من بنى العباس، يلبسون لباس الجنود، وانقضوا على صهرك «الشيخ عبد الله»، وأوثقوه بالحبال، وعاملوه فى جفاف وقسوة، وساقوه إلى السجن، دون أن نعرف لذلك سببًا واضحًا، وقد بادرنا بالكتابة إليك أملاً فى تدارك الأمر، فقد تكون هناك دسيسة خبيثة روّج لها بعض الوشاة والحاسدين، ولا شك أن صلتك برجال بنى العباس وقادتهم قد تشفع لك فى هذا السبيل، وإذا كان هناك من رجاء فهو أن تسرع بالسفر قبل فوات الأوان، مخافة أن تتعرض حياة الشيخ

للخطر فى هذا الوقت رخصت فيه الدماء، وهانت الأرواح، والله أسأل أن يكتب لك التوفيق والسداد. . ».

احتقن وجه «على» وعبّرت نظراته عن الضيق الشديد، ونظر إلى زوجه فى حيرة وخجل فقالت وقد امتلأت عيناها بالدموع :

- «ماذا جرى؟».

- «ليهدأ بالك. . رسالة من أمك. . ».

- «ولماذا لم يكتبها أبى؟ هل أصابه مكروه تكلم. . ».

فطأطأ رأسه، وقال بصوت خفيض متعلثم :

- «لقد قبض عليه «بنو العباس» وأودعوه السجن. . ».

فأمسكت ذراع زوجها بأصابع متشنجة وأخذت تصيح :

- «كيف؟! إنه ليس واحداً من أعدائهم. . ثم. . ثم. . هل نسوا أنك زوج ابنته؟ وقد ضحيت وحاربت من أجلهم، ومن أجل تدعيم ملكهم. . أيعقرون اليد التى قدمت لهم العون ولإحسان. . ».

وسادت فترة صمت قال «على» بعدها :

- «لا شك أن فى هذا الأمر خطأ غير مقصود، وأظننى كفيل بإصلاح ما أفسده العباسيون فى أقصر وقت. . ».

قالت فى لهفة :

- «خبرنى عما ستفعله . . »

- «سأسافر الآن . . ».

- «الآن؟».

- «ولماذا الإبطاء؟ يؤسفنى أن أقرر أن بعض رجالنا لا يعتصمون بالحكمة ولا يرحمون، ومن السهل أن يسفكوا دم المشكوك فى أمرهم، حتى يقطعوا دابر الفتنة . . ولكنى واثق أن الله سيكتب له النجاة . . ».

وارتمت «المياء» على السرير تبكى فى حرقة ولوعة . .

●●●



لم يكف «حسان بن نافع» عن التفكير فى أمر «ياسمين»، وأدرك يقينًا فى نهاية الأمر، أنه لا يستطيع الاستغناء عنها، أصبحت ألزم له فى حياته من أى مخلوق آخر، بل ترتكز فيها أمله وطموحه، وازداد إيمانه بهذه الحقيقة رسوخًا بعد أن أيقن أنها تبادله حبًا بحب، وترى فى القرب منه سعادة وحبًا صادقين، كان حبها هو البسمة الوحيدة الرطبة التى خالطت حياته القاسية التى لم تكن تفترق عن لهيب الصحراء المقفرة، وكان «حسان» كما هو معروف رجل حرب وسياسة، وفى الوقت نفسه تاجرًا من أنجح التجار، وقد كان لهذه الأمور مجتمعة أثر لا ينكر فى تشكيل سلوكه وأفكاره، ولهذا كان واثقًا تمام الوثوق فى العثور على حل نهائى لهذه المشكلة، آملاً فى أن يجمع الله شمله بمن يحب، ويكتب لهما الحياة الهانئة فى ظل زواج آمن بهيج، ولم تكن المشكلة غامضة، فالواضح أن «ياسمين» يملكها سيدها «على بن أبى أميمة» الذى اشتراها بماله، وقد يكون لسيدها رغبة فى بقائها

معه، وربما يميل إليها، ويعتبرها إحدى ضرورات حياته كرجل ثرى يملك الضياع والمال والقصر، وصاحب حظوة لدى الخليفة، لكن «حسان» كان يتشبث بما له من دالة وحظوة وصداقة متينة مع صاحب القصر . .

وكانت «ياسمين» تحلم باليوم الذى تجد نفسها فيه وقد أصبحت زوجة «لحسان»، زوجة حرة تسكن بيتًا خاصًا بها، ولا تتلقى أوامر من أحد إلا زوجها، ولا تتفوه بكلمة مولاى وسيدى، ولا تمنح نفسها لرجل يريدها؛ لأنه اشتراها بماله، إنها تعشق الحب؛ لأن فيه تحريرها، وفيه أيضًا انتماؤها بعد ضياع وعبودية وتشرد، ولهذا فهى تحلم، وستظل تحلم باليوم الموعود الذى تنال فيه أملها، ويا له من أمل رائع يستحق أن تضحى من أجله بكل ما تملك! وعندما دخلت مسكنه حاملة الطعام والشراب، تلتفت يمنة ويسرة، وقالت «لحسّان»:

- «أين «ميمون»؟» .

- «رافق سيده فى سفره . .» .

- «هذه فرصة ذهبية . .» .

وتطلع «حسان» إلى وجهها الفاتن الذى ورّده الخجل والانفعال، وإلى انعكاس الثياب الملونة على جدران المسكن، وعلى بشرتها البضة البيضاء، وعلى نفسها الوالهة الواقفة، وتمتم:

- «لم أعد أطيق صبراً . . ».

- «وأنا أكاد أجن جنونًا . . ».

- «فلماذا نعيش فى حرمان يا حبيبتى؟».

قالت وهى تهز كتفيها فى احتجاج :

- «لأننا لم نعثر على حل مناسب بعد».

فغادر مقعده ثم اقترب منها ، وقال :

- «لقد وجدته».

- «اشرح لى الأمر . . ».

- «إن لم يكن هناك شىء يربطك بسيدك سوى امتلاكه لك ، فقد هان الأمر . . ».

فنظرت إليه فى ذكاء وهمست :

- «أفهم ما تقول ، تريد أن تعرف . . هل هناك صلة عاطفية بينى وبينه أم لا؟ حسنًا ، لن أخدعك ، لقد أجبته ذات يوم ، وكان يهوانى ونتيجة لذلك قاسيت كثيراً من العناء ، وهو بدوره أوقع نفسه فى مشكلة لا حصر لها ، وعندما علمت زوجه بالأمر أصيبت بصدمة شديدة ، واجتاحت القصر عاصفة كادت تقضى على أمنه وسلامه ، وفى النهاية ندم الجميع على ما صدر منهم ، وعاد لزوجه

يترضاها ويعتذر لها، ويسبح بين يديها عبرات الندم، ثم عاملني بعد ذلك معاملة لم أشم منها سوى مشاعر الكراهية والبغضاء لي، وأعترف لك صادقة.. أنني لا أحبه، وليس بيني وبينه الآن إلا ما يربط الإماء بالسادة من حقوق الطاعة، كن واثقًا أنني لك وحدك، وكن واثقًا أيضًا أنني أضحي بحياتي من أجل حبنا، نعم أنت الآن سيدي ومولاي عن رغبة أكيدة، ولك أن تجرب إذا شئت..»

فاندفع إليها وهو يقول:

- «لا بد من التجربة..».

فهمست بحزم:

- «لن أكون لك قبل أن تجد حلاً».

- «أنت تعرفين مدى صلتي الوثيقة بصاحب القصر».

- «أعرف..».

- «ولا أخفي عنك أن لي قسطًا من أرباح التجارة أدير دفتها..».

- «العدالة تقتضي ذلك، فأنت تحمل العبء الأكبر، وليس له في التجارة سوى رأس المال..».

فأردف مواصلاً حديثه:

- «وقد جمعت مبلغًا كبيرًا من الدنانير..».

- «هذا يسعدنى».

- «وسأدفع لصاحب القصر الثمن.. أجل- الثمن-.. إنها كلمة بغيضة.. عندما أتذكر أنك أيتها الإنسانة الرقية تباعين بالمال.. مهما كانت كمية هذا المال.. أشعر بحسرة وتضاؤل لا يعرف إلا الله مدى تغلغلهما فى نفسى.. أنت روح شفافة ومنزلتك فوق المال والمادة وكل ذهب الدنيا.. لكن لا مناص من دفع الثمن، ذلك الشيء البغيض الذى يحط قدر الإنسان وتفكيره..».

فقالت وقد أبهجها ما سمعت، وتألقت ملامحها بالسرور:

- «وإذا رفض؟».

- «لماذا يرفض؟».

- «هناك صنف من الرجال ينظر إلينا وكأننا تحف تزين القصور، وتضفى الجمال على أثاث الحجرات، وتملأ المجالس والمسامر بهاء وحلاوة..».

صاح «حسان» فى ضيق:

- «سأشترى له أية جارية أخرى..».

- «تحرر جارية، وتستعيد أخرى، فماذا فعلت إذن؟..».

- «خبرينى ماذا أفعل.. إننى أريدك مهما كان الأمر..».

فابتسمت فى صفاء وقالت :

- «أنه حل طيب على ما يبدو، ونجاح الخطة يعتمد على مولاى صاحب القصر، فقد يتسع قلبه لهذه التضحية الإنسانية التى تقل نبلاً عن أية تضحية أخرى، ثم لماذا نذهب بعيدًا؟».

- «ألم يعتق «وعد» ووهبها حريتها وزوجها للشاعر المنكود؟

وأظن أن مشاعر مولاى نحوك لا تقل صدقًا وحرارة عن مشاعره نحو «أبى لؤلؤة». . ».

فنظر «حسان» إليها فى حنان وقال :

- «إنك تملأين نفسى دائمًا بالأمل، وتجعليننى أحب المستقبل. . ذلك الذى كنت أبغضه وأخافه. . ».

ردت ياسمين قائلة :

- «حسنًا لننتظر قليلاً حتى يعود سيدى ويتكشف الجو. . ».

وتذكرت «ياسمين» أنها لا تعرف الكثير عن الرجل الذى تعلق به قلبها، ولا تعرف من أين قدم؟ وكم من الوقت سيقضيه هنا؟ ولا متى سيرحل؟ ولهذا قالت :

- «يا لى من ساذجة!! أما كان من الأحرى بى أن أسالك من أنت؟».

- «إنسان مثلك . . » .

- «لست مثلى على أية حال ، فأنا أمة ، وأنت إنسان حر . . » .

وصمت برهة ثم قال :

- «ألا تعرفين؟» .

- «كل ما أعرفه أنك ضيف نزل بقصرنا ليعاون سيدى فى التجارة ، وهذا لا يكفى . . » .

وشرد ببصره بعيداً ، ثم أخذ يقول :

- «لو حالفنى الحظ لكنت اليوم أحد الأعلام فى الدولة سأعترف لك لأول مرة ، وأنا واثق أنك مخزن أمين للسر ، لأن إفشاء أمرى معناه سفك دمى . . » .

فصرخت فى هلع قائلة :

- «كيف تتفوه بهذه الكلمات؟» .

- «أنا رجل مهدر الدم . . ناصرت بنى أميه ، وكنت أحد رجالها البارزين ، وحينما انهار حكمهم ، لاحقتنى سيوف العباسيين فى كل مكان . . » .

- «لكنك فى بيت رجل من غلاة العباسيين» .

- «هذا ما حدث . . والغريب أنى وجدت على يديه الأمان والحماية . . » .

- «غريب حقًا ! » .

- «إن مولاى إنسان ذو قلب كبير يا «ياسمين» . . » .

ران عليهما صمت بليغ ، ثم قال «حسان» وقد أشرق وجهه بالأمل . . ذلك الأمل الذى يعيش به ، وقال :

- «لكنى أؤمن بالمستقبل . . أفكر فى هذه المشكلة دائمًا ، إن لى صلة قرابة بأحد مؤيدى العباسيين الكبار ، وهو صديق شخصى للخليفة «أبو العباس» ، وبعد أن يهدأ الجو العاصف وتستقر الأمور فسوف أتصل به ، وأملى كبير فى الصفح . . » .

لم تزدها هذه الأخبار إلا إيمانًا برجلها ، وتقديراً لكفاحه وعصاميته برغم الهزيمة ، إن ما يكتنف حياته من خطورة وغموض وتاريخ عاصف يجعله أشد قربًا من قلبها وأكثر رجولة فى نظرها ، ولعلها كانت تحلم برجل يمثل العنف والمغامرات والطموح . . وقبل أن تغادره أخذا يتحدثان عن النبأ الذى لم يكن ليصدقه أحد ، ألا وهو مطاردة العباسيين لصهره ، وإلقائه فى السجن ، وقال «حسان» مشدوهًا :

- «أيمكن أن يحدث هذا و «على بن أبى أميمة» من كبار رجالهم؟ » .

فقالت «ياسمين» :

- « لا شك أنهم يجهلون هذه العلاقة . . » .

أما «حسان»- صاحب التجربة المريرة فى الحقل السياسى فقد غمغم فى حسرة :

- السياسة لا قلب لها ، إنها تدوس كل القيم والاعتبارات ولا يذكر صاحب الصولجان إلا سلامته واستقرار الحكم . . ولن يتردد فى ارتكاب أية حماقة فى سبيل الحفاظ على ملكه . . أنا أعرف الكثير عن ذلك . . وأعرف ما هو أبشع منه . . » .

فهمست «ياسمين» فى حزن :

- «يا لها من قسوة ووحشية . . ؟ . . » .

●●●



[٢٠]

وقف «علىٌّ» لدى باب السجن الكبير بعد أن ترجل عن جواده، ثم تقدم من الحارس، ونظر إليه الحارس فوجد رجلاً حسن النبرة، وحسن السمت يرتدى الشارات السوداء، وانحنى الحارس فى إجلاء وتمتم:

- «أية خدمة أستطيع أن أؤديها لك يا أخا العرب؟».

- «أنا «على بن أبى أميمة»، أريد أن أقابل آمر السجن».

وفى حجرة آمر السجن حدثت عدة مفاجآت، فقد قدم إليه «على» توصية مكتوبة من أحد رجالات الدولة العباسية، وذهل آمر السجن حينما علم أن السجين الخطر «الشيخ عبد الله» هو صهر هذا الفارس العباسى، ونكس الآمر رأسه فى أسى وقال:

- «لم يخبرنا صهرك بعلاقة المصاهرة بينكما..».

- «إن له كبرياء من نوع غريب.. ويؤمن بهيبة العلم والعلماء إلى أبعد مدى، ومع ذلك فأظننى أتيت فى الوقت المناسب..».

وبدت الحيرة على ملامح الآمر، وهمس فى ارتباك:

- «ليس تمامًا . .».

- «ماذا تعنى؟».

- «لقد وصلت متأخرًا بعض الشىء . .».

- «هل أصابه مكروه . .».

ولم يعلق الآمر بشىء، وانسلَّ خارجًا بعد أن طلب من «على» أن يتبعه، وأخذ يسلك به عديدًا من الدهاليز والسراديب الرطبة المظلمة، وتمتم الآمر:

- «فى مثل هذه الأوقات العصيبة لا تؤمن العثرات . . أنت رجل عباسى، وتعرف يا أخى ما قاسته الدولة الوليدة من مؤامرات، وما تعرضت له من أخطار . .».

قال «على» وهو يهرول خلفه:

- «لقد بذرت فى قلبى الشك والخوف بكلماتك . .».

ولمَّا لم يجب الآمر بشىء تساءل «على»:

- «ترى هل هو فى حالة سيئة؟».

- «وماذا ترانا كنا فاعلين إزاء رجل يهدد أمن البلاد؟».

- «كيف؟».

وأخذ الآمر يروى له كيف أن «الشيخ عبد الله» وهو يلقى دروسه اليومية بالمسجد تعرض لمشكلة الخلافة، وكيف أنه هاجم العنصر الفارسى بقسوة واتهمهم بأنهم يبتدعون فى الإسلام، ويدخلون عليه ما ليس فيه، وخاصة فيما يتعلق بالحق المقدس فى الحكم لأهل البيت، وأخذ يشرح لهم الحكم المشاع بين جميع المسلمين، وأن أهل البيت كغيرهم من البشر، ولا يعنى اختيار الله لرسوله من بينهم تميزهم بحق وراثة الخلافة وكيف أن بعض المغرضين والفارسيين، اختلقوا الأحاديث، وأولوا الآيات القرآنية لخدمة أغراضهم، فأضروا بالإسلام ضرراً بليغًا، فرد عليه أحد المتعصبين للبيت العباسى، وهو فارسى، واتهم الشيخ بأنه يبذر بذور الفتنة بين الأجناس المختلفة، مع أن الجميع مسلمون، تظلهم راية القرآن، ولا فرق بين أعجمى وعربى، وحاول «الشيخ عبد الله» أن يشرح وجهة نظره، ويؤكد أن المسلمين سواسية، وأنه ليس شعوبيًا، ولا يريد إثارة فتنة، وإنما يحلل الأمور، ويردها إلى أصولها، ويعالج قضية الحكم واختيار الإسلام على ضوء ما يفهمه من المبادئ الإسلامية. . وقد أدى هذا النقاش فى ساحة المسجد إلى فوضى واضطراب. كادا يؤديان إلى إراقة الدماء. . وأكد له الآمر أن «الشيخ عبد الله» بعد أن قبض عليه فقد أعصابه، وأخذ يرمى الخليفة بالظلم وتحريف المبادئ الإسلامية، وانتهاكه هو ورجاله

لحرمات الشريعة الغرّاء، ورميهم بكل الرذائل . . فقال «على» معلقًا على كل ما سمعه :

- «ولماذا لا تفسحوا صدوركم لكل ذى رأى مخالف؟» .

- «مستحيل : إن معنى ذلك إتاحة الفرصة للفتن والاضطرابات . . إن صهرك أموى ضليع . .» .

- «كيف وهو ينكر حصر الخلافة فى بيت واحد؟» .

- «إذن فهو خارجى متطرف . .» .

- «ألم تحددوا تهمته بعد؟» .

- «التهمة التى لا مراء فيها هو معاداته لنظام الحكم الحالى . .» .

ولفّهما الصمت من جديد، ولم تعد تسمع غير وقع خطواتهما، وأمام إحدى الزنازين الصغيرة وقف الرجلان، وحدق «علىّ» فى ظلامها، فرأى رجلاً لا تبين ملامحه، ملقى على حصير بالية، وهو يئن ويتوجع، وحاول أن يستفسر من الآمر لكنه لم يجده، كان قد انصرف . . ففهم «على» كل شىء، ثم اقترب من الباب وعالجه برفق حتى انفتح، وانحنى على الرجل الممدد على الحصير ودقق النظر فى وجهه ثم صرخ :

- «أهو أنت؟» .

فرفع الشيخ إليه عينين متورمتين، ووجهًا مشرقًا بابتسامة تغالب الضعف والوهن وتمتم:

- «أجل «أنا» ألم أقل لك؟».

وحاول «على» أن يختضنه ويقبله، فتأفف الشيخ، ودفعه عنه فى رفق، وقال بنبرات تشى بالألم العميق:

- «لا تلمسنى.. إن جسدى مهترئ..».

- «ماذا بك؟».

- «إن سياطهم لا ترحم..».

- «هل ضربوك بالسياط؟ مستحيل..».

- «وماذا كنت تنتظر منهم غير ذلك؟ لم يبق فى جسدى كله شبر واحد دون كدمات أو جروح، لقد تقيحت جروحى، والحمى تسرى فى جسدى.. إن القوة العمياء لا تعرف المنطق ولا العدل.. نحن الضعفاء الذين لا يعرفون مثل هذه المصطلحات.. إن ما قلته مجرد فتوى.. بل سمّه رأيًا إذا شئت.. أتعتقد أن العالم الذى درس الدين، ويعرف قداسة الشريعة يجبن عن الإدلاء بالشهادة إذا ما سأله سائل؟ إن القضية واضحة لا لبس فيها ولا غموض.. العباسيون لا يريدون رأيًا مخالفًا كما فعل غالبية الأمويين من قبل..

ودارت الأرض بـ«على»، وشعر بأسى عميق لا تعبر عنه الكلمات مهما امتلأت بالإيماءات والدلالات، وإحساس بالضياع والندم امتزج بروحه الثائرة، أمِنْ أجل هؤلاء حارب وضحى وتعرض للموت؟ وكيف تمضى الأمور على هذا المنوال؟ أين الأمن والسعادة والحرية التى وعد بها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها إذا ما تسلم هؤلاء مقاليد الأمور؟ أمن أجل ذلك راح أبوه غيلة؟ أمِنْ أجل هذا أريقت دماء الألوف من البشر المساكين؟ وهل أمر بهذا كتاب الله وسنة رسوله؟ حقًا لقد أصبح الدين ألعوبة فى يد العابثين.. أصبح وسيلة يتوسل بها الحمقى والمغرضون إلى نواياهم الخبيثة.. وأفاق «على» من أفكاره على صوت صهره الواهن الضعيف:

- «فلتتوسط لديهم لعلهم يسمحون لى بجرعة ماء.. أكاد أموت ظمأ.. والحمى تشعل جوفى..».

- «هل منعوا عنك الماء؟».

- فقال الشيخ فى سخرية:

- «أتريد أن تستجوبنى أنت الآخر؟».

- «لا أقصد ذلك.. أريد أن أعرف..».

- «أجل منعوا الماء والطعام والشمس والكلمة والحرية، نعم

منعوا عنى كل مستلزمات الحياة، لكنهم لم يستطيعوا أن يقطعوا صلته بى.. سبحانه إن الله هنا، وفى كل مكان، ولن تستطيع سيوف العباسين وقضبانهم أن تقف عائقًا فى طريقه.. جل وعلا.. مالك الملك ليس له ثان..».

وكاد «على» يختنق من الغيظ، وهو يستمع إلى تفاصيل المعاملة الوحشية التى ليقيها صهره، لم يكن يتصور أن تؤول الأمور إلى هذا الدرك من الانحطاط كان يدافع عن حرية الإنسان، وعن العدالة والحق المقدس لبنى البشر وعن أصول الدين الذى جاء لإسعاد الملايين، ثم عاد إلى قصره بعد النصر، ولم يكن يتصور أن هناك طائفة من الجلادين القساه القلوب، سيتولون حماية الخلافة بالحديد والنار، ويسحقون كل المعانى النبيلة التى تمضى بها الحياة، وينعم فى ظلها الإنسان..

- «لا شك أنهم يرفضون».

قالها الشيخ فى حسرة فرد «على»:

- «أى شىء تقصد؟».

- «جرعة ماء..».

- «سآتى بها فورًا.. لقد أوشكت أن أنسى لما أراه من غرائب لا يصدقها العقل..».

فضحك الشيخ وقال :

- «تنسى الماء لأنك لا تشعر بالظمأ . . كما نسيت العدل بالأمس لأنك لم تقاس الظلم، ونسيت الرحمة لأنك لم تتعرض للقسوة . . هكذا الدنيا . . » .

وهب «على» واقفًا، وقد ترقرقت فى عينيه الدموع، عازمًا على إحضار الماء لصهره، لكنه سمع صوتًا يهتف خارج الزنزانة :

- «لقد أحضرت زادًا وماء . . » .

- «لماذا هذا الكرم المفاجئ؟» .

- «إنها الأوامر الجديدة . . » .

والتفت الشيخ إلى «على» قائلاً :

- «انظر لقد كان لمجيئك هنا أثر ملحوظ . . » .

قال «على» وهو منكس الرأس لماذا لم تخبرهم بصلتنا العائلية فى بداية الأمر؟ لو فعلت ذلك لوفرت على نفسك كثيراً من المتاعب . . » .

قال الشيخ وقد شرب قدرًا كبيرًا من الماء :

- «آه صدق الله العظيم . . ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء : ٣٠].

وصمت برهة ثم استطرد:

- «لم أشعر بحلاوة الماء وعذوبته كما شعرت بها الآن.. ما أكثر المحرومين فى الأرض!! وما أغبانا؛ إذ لا نعرف شيئًا من عذابهم وحرمانهم!».

وعاد إلى الصمت مرة أخرى، ثم واصل حديثه:

- «تسألنى لماذا لم أشر إلى علاقتى بك؟.. حسنًا، أنت تعرف أنى لا أتوسل بعبد من عبيد الله ولو كان الخليفة نفسه.. إنى أؤمن بالحرية والعدل، ولهذا أصدرت ما آمنت به من فتاوى.. إن حرية القول مكفولة للجميع فى ظل المبادئ الإسلامية السمحاء.. وإذا كان إيمانهم بهذه البديهات لا يرقى إلى إيمانى فإن هذا لا يزعجنى لأنى أعرف الثمن.. حياتى؟ أليس كذلك؟ إننى أقدمها عن طيب خاطر، وأنا واثق تمام الثقة أننى سأموت شهيداً.. وفى سبيل الله، لا فى بيت من البيوت، أو حزب من الأحزاب.. قد يضايقك من هذا الكلام؛ لأنه ينال من كبريائك، وينتقص من شأن كفاحك وتضحياتك، لكن ما حيلتى وقد أقسمت ألا أقول إلا ما أعتقده؟

وقضى «على» إلى حوار صهره وقتًا لا يدرى أطال أم قصر، ثم التقى أخيراً بآمر السجن مستفسراً عن موعد إطلاق سراح السجين، فقال الآمر دون أن تنبسط عضلات وجهه المنقبضة: - «لا يفرج عنه إلا بأمر الخليفة.. فلتذهب إليه، إن جريمته من ذلك

النوع الخطر الذى لا يمكن التصرف فيه، و لكنى أعدك وعداً صادقًا بتحسين معاملته، وتهيئة كل ما يلزمه من طعام وشراب، ولن تمتد إليه يد بسوء، ولسوف أنقله إلى مكان أكثر ضوءاً ونظافة واتساعًا. . ».

وخرج «على» من السجن زائغ النظرات، الرايات السوداء تخفق فوق المبانى والمساجد وفروع الأشجار والنخيل، وسيوف الجنود المنتصرين تبرق تحت وهج الشمس، والشوارع ملأى بالألوان شتى من البشر، والشيخ «عبد الله» ما زالت صورته، وجسده الدامى الملتهب، وعيناه المتورمتان متسلطة على أفكاره وتأبى أن تغادرها، وكأنما صرخة استغاثة لرجل يحترق وسط بركان يتدفق حديداً منصهراً. . لكن صوت المؤذن ينبعث حنونًا نديًا، فيجد الطريق إلى قلبه. . ويخفق بعض الشىء من أساه، فيميل إلى المسجد ليناجى الله، وقد أذاه ما يضج به العالم من حيرة وأحزان. .

●●●



إن الدولة تتسع وتكثر فتوحاتها، ونور الإسلام يشرف على بلاد جديدة، والشعراء يبتكرون ويترنمون بأخيلة ومعانى جديدة، والفلسفات يتسع نطاقها، الترجمات من لغات أجنبية إلى اللغة العربية على قدم وساق، والصناعة والفنون تنشط بوجه عام، لكن لماذا هذا العنف وتلك الاضطرابات التى تسود أنحاء الدولة؟ ولماذا لا يتوقف سفك الدم، وتآمر البيوتات والأحزاب؟ إن الحرية مطلقة للجميع بشرط واحد هو ألا يتعرض أحد لأمن الحكم واستقراره، ومثل هذا الشرط يهدم ركنًا كبيرًا من أركان الحرية، ويصرع عديدًا من المعانى النبيلة، إن الحكم ليس له قيمة إذا لم يتزود بهدف رئيسى ألا وهو سعادة الإنسان، والحرية تشكل حيزًا ضخمًا من هذه السعادة، فإذا خرج الحكم عن هذا المفهوم تحول إلى سياط تسلق أجساد البشر، وتمحق سعادتهم وتحيلها إلى شقاء مقيم.

هذا ما كان يفكر فيه «على» وهو جالس فى بستان قصره، إن الأحداث الكبيرة التى تعترض حياته، قد غيرت كثيرًا من مفاهيمه،

وأثرت فى سلوكه وشخصيته تأثيرًا لا يمحى، ولم يستطع أن ينكر أن العنصر الفارسى الذى أيد الخليفة الجديد وكافح من أجله بالسيوف، قد ترك بصمات غريبة على أجهزة الدولة كلها وعلى أفكارها، فالفارسيون قد خلدوا ردحًا طويلاً إلى حكم الأكاسرة، وسياسة القصور وأكذوبة التفويض الإلهى، الحاكم المؤيد من قبل الله والذى خلق ليكون حاكمًا بصرف النظر عن استعداده الشخصى، حتى ألوان الطعام، وألوان السمر وطريقة حياكة الملابس ونسجها اصطبغت بالصبغة الفارسية، وعدد كبير منهم قد تقلدوا أمورًا مهمة فى الدولة وابتكروا عددًا من الأساطير والمعجزات ونسبوها إلى أهل البيت، إمعانًا فى إضفاء القداسة عليهم، وتأكيدًا لحقهم فى ولاية الأمر دون منازع . .

ولم يكن «على» مثل صهره يكره الفارسيين لأنهم فارسيون، بل لأنه كان يعتقد اعتقادًا راسخًا لا يتزعزع أن المسلمين إخوة، يتساوى فى ذلك الفارسى والعربى والحبشى واليونانى، لكن إدخال الأفكار الغريبة المتناقضة مع أصول الإسلام الصريحة، ومحاولة العبث بالمبادئ الإسلامية وإعطائها مدلولات تختلف تمامًا عن الحقيقة والواقع هى ما يثير الخوف والإشفاق فى قلب «على» ويجعله يستشعر خطرًا حقيقيًا على الإسلام، إن الكارثة الكبرى هى أن الحكام لا يفكرون إلا فى أنفسهم، وتثبيت دعائم ملكهم، والقضاء على أعدائهم، أما تفكيرهم فى الدين الذى باسمه

يناضلون وتحت لوائه يعيشون ويفتحون الأقطار، فقد أصبح ضئيلاً لا يشفي غليلاً. . لقد قامت الثورة بادئ ذي بدء احتجاجًا صارخًا على مظالم بني أمية، وعبثهم بأصول الدين، ثم تحولت الثورة بالتدريج إلى خلاف شخصي- أو شبه شخصي - بين فئتين من الفئات الكبيرة، لم يكن خلافًا بين منهجين أو فلسفتين، ومن ثم لم يكن غريبًا أن يرتكب الطرفان في الأخطاء والحماقات. .

وتذكر «علي» في تلك اللحظات صديقه «حسان بن نافع إنه أموي متطرف، أما هو فعباسي متطرف، كان هذا فيما مضى وكان إحساس «علي» باتساع الهوة بينهما كبيراً، أما اليوم فإنه يرى «حسان» أكثر قربًا منه، ذابت بينهما الخلافات الفكرية، لقد تطرف «علي» إلى أقصى اليسار، وها هو يعود ويقترب من الوسط. . لم يعد يجد لذة في ثوريته وتطرفه، شعوره يدفعه إلى الاعتدال والمهادنة، لشد ما يتغير الإنسان وتتحول نظرته إلى الأشياء، وخلص «علي» في النهاية إلى نتائج حاسمة لا يمكن إنكارها ألا وهي:

- «أن بني العباس يخطئون حين يعتبرون كل مسلم غير عباسي النزعة عدواً لدوداً لهم».

- «وهم مخطئون حينما يضطهدون كل رأي مخالف، ويطاردون كل تفسير للإسلام لا يتفق مع هواهم».

- «وهم مخطئون حينما يلجئون إلى وسائل العنف والسياط لتحويل الناس عن آرائهم وانتزاع الاعترفات منهم».

- «وقد جانبهم الصواب أيضًا حينما روّجوا للمفاهيم الفارسية التى تلبس قواعد الحكم وصورته لباسًا مستعارًا خارجًا عن المفهوم الإسلامى..».

●●●

ورأى «على» «حسانًا» مقبلاً عليه، والحق أن «عليًا» كان ضائقًا بعزلته، متعب النفس من كثرة الأفكار المتضاربة التى تعتمل فى رأسه وكان فى مسيس الحاجة لصديق وفىّ يخفف عنه بعض ما يعانيه من ضيق.

وأقبل «حسان» ترفّ على ثغره ابتسامة رائعة، وحيّاه فى أدب، وجلس أمامه صامتًا وبدأ «على» الحديث قائلاً:

- «لا شك أنك شامت الآن».

- «وفيم الشماتة؟».

- «لأنك ترى بنى العباس ينكلون بمن تربطنى بهم أواصر القربى أو المصاهرة..».

قال «حسان»:

- «لم أعد أستبيح لنفسى الشماتة بأحد وقد عانيت ما عانيت».

- «كان صهرى- حفظه الله- أبعد نظرًا منى ومنك . . ».

- «أما أنا فقد اعترفت بخطئى».

- «لأنك هزمت . . ».

- «كان لهزيمتى أثر فى تحويل مجرى أفكارى ولعلها أعطتنى الفرصة للتفكير السليم، لم تكن الهزيمة كل شىء يا «على» . . وأنا جد سعيد لاكتشافى الخديعة الكبرى التى كنت أعيش فيها . . ».

ووضع «على» ساقًا على ساق، وجذب من نرجيلته أنفاسًا متلاحقة، ثم نفخ سحابة ضخمة من الدخان وقال:

- «أما أنا فقد أعمانى النصر . . ».

- «ثم أيقظتك الأحداث المريرة . . ».

وعاد «على» يقول:

- «كلانا كان مخدوعًا . . الوحيد الذى لم يستسلم لأى لون من ألوان الإغراء هو صهرى «الشيخ عبد الله» . . أتدرى لماذا؟».

فتساءل «حسان» وقد بدا الاهتمام على ملامحه:

- «لماذا؟ يهمنى أن أعرف».

- «لأنه عاد إلى أصول دينه يستفتيها، ويسألها الرأى . . لم يربط نفسه ببيت ولا حزب، وإنما ارتبط بالقيم الدينية الخالدة التى

لا تعرف الزيغ والأهواء. . وفى رأيى أن فى ذلك الخلاص من كل عذاب وضلالة. . ».

قال «حسان»: «إنك تنطق بالحكمة التى لا مراء فيها. . ».

- «لكن للأسف يدفع الثمن غاليًا. . ».

- «لأن ما يحرص عليه غال وعظيم يا «على». . ».

وتمتم «على»:

- «إن حبنا لأهل البيت ارتبط بحبنا للرسول ﷺ، وتحول هذا الحب إلى عصبية عمياء لكل ما يرونه من آراء، لم نستطع أن نفرق بين «علىّ» و «الحسن» و «الأئمة» و «أبى العباس»، بل وأصبح «أبى مسلم الخراسانى»؛ لأنه يحمل الراية العباسية ويدافع عنها، كأنه واحد من أهل البيت. . اختلطت الأمور فى أفهامنا واندفعنا نحارب. . ونحارب ونطرب للنصر وللدماء المراقة حتى كدنا ننسى جوهر الدين العظيم الذى كان - فى حقيقته- ثورة أخلاقية، وشفاء للنفس والروح، وإحياء للقيم الإنسانية الأصلية وتحرير للإنسان من كل ألوان العبودية والمظالم، وهكذا تحول الدين لحماقتنا وغبائنا، مشكلة حكم وخلافة وبيوتات ليس إلا. . ».

قال «حسان» وقد غمرت هذه الحقائق قلبه:

- «إن الحقيقة تصفعنى لأستيقظ. . ».

- «وتصفعنى أنا الآخر يا «حسان». . ».

- «وصفعتها قاسية لا ترحم. . ».

- «ما دمنا قد تيقظنا فسننسى قسوتها. . ».

- «المهم أن تعرف الطريق يا «على». . ».

سادت فترة صمت، قال «حسان» بعدها:

- «لعلك وصلت إلى نتائج حسنة. . ».

فابتسم «على» فى سخرية وقال:

- «يزعمون أن خطورته على الأمن أكبر مما أتصور. . ولهذا أرجئوا النظر فى الأمر بضعة أسابيع. . ووعدونى خيراً. . ».

- «كنت أحسب أنك ستخرج من السجن ومعك صهرك. . ».

- «الرجل فعلاً فى حالة سيئة. . عاملوه بقسوة لا نظير لها. . ».

- «أيمكن أن يحدث هذا؟».

وأقبل «أبو لؤلؤة» يملأ المكان ضجيجًا، جاء يسب ويلعن الوظيفة الجديدة وعمله بالديوان وارتباطه بعمل فى الصباح والمساء وعدم قدرته على نظم الشعر فى هذا الجو الخانق الممتلئ بالمشاغل والمشاغبات، وعدم استراحته لبعض الرؤساء الذين لا يحفظون بيتًا

واحداً من الشعر، ولا يقدرون الأدب حق قدره، ويلحنون دائماً فى الكلمات ويستقبلون قصائده ببرود وجهل غريبين . .

ثم أنحى باللائمة على زوجه البلهاء «وعد» التى تسببت فى قبوله لهذا العمل الذبى جنى على شعره وكرامته وصحته، ثم أخذ يهجو الزواج بأبيات قاسية من الشعر، ممتلئة بفاحش القول، ويصف النساء بكل غباء وقصور، ويؤكد أنهم خلفاء للشيطان، ومتآمرين على سعادة الرجال وراحة بالهم . .

ولم ينس أن يميل على أذن «على» هامسًا :

- «فليُجاز الله كل من تسبب فى نكبتى . . » .

فقال «على» محاولاً الابتسام والمرح :

- «أنت السبب يا «أبو لؤلؤة» . . » .

- «تقول هذا وأنت تعرف أن حواء أخرجت آدم من الجنة . . لكن لحسن الحظ انتقل إلى الأرض، أما أنا - للأسف الشديد- رمت بى البلهاء فى أعماق الجحيم . . أنا أتعس من آدم، وأنكى منه عذابًا . . » .

وتحول المجلس إلى نكات وأحاديث فاكهة، كان بطلها «أبو لؤلؤة» .

●●●



ضاق «على» ذرعًا بالأفكار والضجيج، ولم يعد يطيق دموع زوجه «لمياء» من أجل أبيها السجين المريض المظلوم، ولم يعد يرتاح لرؤية «ياسمين»، لا . . الحقيقة أن «ياسمين» تقلقه، لا يعرف هل مراها يسبب له الضيق؟ أم الارتياح؟ إنه يراها تنمو وتنبع، وتزداد فتنة وروعة، ونظراتها الحزينة تتحول بالتدريج إلى بهجة خفية، تومض فيرى فيها معانى لم تتولد فيها من قبل، لا شك أن فى حياتها سرًا تخبئه عن الناس، و«على» يجد نفسه فى كثير من الأحايين يفكر فى «ياسمين» وقلبه ينجذب إليها، لطالما صرف نظره عنها، وأقسم لزوجة «لمياء» على الوفاء لحياته، وكثيرًا ما أبدى حنقه على «ياسمين»، ورماها بنصب الشباك له حتى أوقعته ذات مساء وكادت المأساة تتم فصولها لولا لطف الله، لكنه انتصر على ضعفه، وعالج الأمر بعنف لاينبىء عن حب أو التفكير مشاعر حنون، فكان أن انصرفت «ياسمين» عن حبه أو التفكير فيه، وكان أن حاول «على» جاهدًا أن ينسى ما فات، وأن يعتبره مجرد ضعف بشرى،

ونزوة طارئة ، لكنه لم يواجه نفسه بهذه الحقيقة ، والغريب أنه يحب زوجه هى الأخرى ، ويحمل لها فى قلبه أنبل المشاعر وأعظمها ، لكن ميله إلى «ياسمين» كان نوعًا آخر مخالفًا تمامًا ميله لزوجه .

إن المواد الحريقة ليست أساسية فى الوجبات الغذائية ، لكن هناك طائفة من الناس يتعشقونها ، و«ياسمين» هى المادة الحريقة بالنسبة «لعلى» . . كلها دفء وإغراء ، وحرمانه منها كان أكثر تحريضًا من استمتاعه بها . . إن «ياسمين» مشكلة ، و «على» واقف إزاء هذه المشكلة لا يتحرك إلى أمام أو خلف . . وشعر أنه فى حاجة إلى نسمة رطبة تخفف عنه لهيب قلقة ، وتلقى على قلبه بردًا وسلامًا ، ووثب إلى ذهنة على الفور وجه الشيخ «زين الدين» هناك على سفح الجبل فى صومعة هادئة بعيدة عن الدنيا بمشكلاتها التى لا حصر لها ، وسرعان ما ركب جواده وانطلق إلى هناك ، وحينما ألقى عليه السلام جاء صوت الشيخ هادئًا تشيع فيه رائحة الجنة :

- «وعليك سلام الله ورحمته وبركاته . . » .

- «تشوقت يا شيخى إلى لبنك وتمرك . . » .

قال الشيخ فى طرب :

- «أنت نافذتى التى أطل منها على العالم الهائج ، كيف حال الدنيا؟» .

وهمس «على» فى يأس :

- «لا جديد» .

- «وأنت» .

- «أغرق فيها أرقًا وقلقًا» .

- «هكذا الدنيا» .

قال «على» ثائرًا :

- «ولماذا خلقها الله ؟» .

- «هذا سؤال الشيطان فى عقلك . . تستطيع أن تسأل سؤال آخر أكثر معقولية وإنصافًا . » .

- «ما هو ؟» .

- «قل لماذا يحاول الإنسان أن يبذر بذور القلق والأرق؟ إن مأساة الحياة لا تكمن فى حكمة خلقها ، ولكن فى تصرفات القائمين على أمرها» .

أجل يا بنى . . لقد خلقها الله وانتهى الأمر . . العالم كائن فعلاً . . وأراد الله لبنى البشر السعادة والصفاء . . لكنهم ينحرفون؟ .

لا تحاول أن تلقى بالتبعية على أحد غيرك . . أنت المسئول . .

طبيبك يأمرك بألا تتناول المواد الحريقة لأنها تضر بمعدتك، لكنك تشتهيها.

ما ذنب الطبيب أيها النهم العاصى؟ الماء ينزل من السماء عذبًا رقراقًا لا تشوبه شائبة، لكن التراب- تراب الأرض- يلوثه.. هل تفهمنى؟.

لماذا تصوم؟ ولماذا تصلى؟ إنها محاولات جدية للامتناع عن الحريق من الطعام، بل عن الطعام والشراب لبعض الوقت، والصلاة يا ولدى تعيد الصفاء والعذوبة إلى غيث السماء وتنقى عنه الغبار.. هل تفهمنى؟.

والليل يجلو العيون برغم سواده فيزداد حنينها إلى النور، وتستقبله فى شوق ولهفة، ألا ترى قوة الضوء فى الصباح تكاد تغشى العيون الجائعة؟

الشر أكذوبة روّج لها بعض المنحرفين، وألبسوها ثوب الصدق ومعدن الحياة الخيرة، لكن السيوف تلون كل شىء باللون الأحمر، وتطمس معالم الصفاء..

قال «على» وقد ازداد عذابه:

- «دلنى على الطريق.. أكاد أموت قلقًا؟».

- «القلق هو البداية.. إنه نقطة الانطلاق.. ألم تسمع قول الشاعر:

يا صاحبى لا تسلنا

عن الفؤاد المعنى

فعيشنا ليس يهنا

ولا يطيب بقانا

إلا بطول السهاد

- «أترى الخير فى أن أصعد الجبل، وأركن إلى صومعة مثل صومعتك؟».

- سؤال عويص».

- «لكنك تفعل ذلك..».

- «أنا أنا.. وأنت أنت..».

- «أجبنى بربك..».

- «لا أستطيع.. تذكر أنك اتهمتنى ذات مرة بالهروب من الدنيا..».

- «إننى أذكر ذلك».

- «أما زلت مصراً على هذا الاتهام؟».

- «لو كثر عدد الهاربين لأقفرت الدنيا . . أو لبقى فيها الأشرار وحدهم . . » .

- «ها أنت تجيب على نفسك» .

-«إنك تستدرجنى» .

- «حاشًا لله يا ولدى» .

- «ما زلت مصراً على طلب الإجابة على سؤالى . . » .

أغمض الشيخ عينيه ثم تمتم :

- «إذن . . فلتهاجر . . » .

- «أوافقت على لجوئى إلى صومعة مثلك» .

- «قلت فلتهاجر . . الهجرة ليست هروبًا . . » .

- «فما معناها؟» .

- «تستطيع أن تهاجر وأنت فى بيتك وبيت زوجك وأولادك . . » .

- «لكن الهجرة يا شيخى هى انتقال من مكانى إلى مكان . . » .

قال الشيخ باسمًا :

- «وهى أيضًا . . انتقال من حال إلى حال . . » .

- «وكيف؟ بالشجاعة والصبر والتوكل على الله؟» .

فتح الشيخ فمه فى دهشة حينما سمع «على» يقول:

- «قبضوا على صهرى وهو شيخ عالم جليل ومزقوا جسدوا بالسباط!!».

- «هنيئًا له.. هذا غاية المنى».

- «كيف؟».

- «لقد هاجر صهرك ولم يبق إلا أنت».

لفّهما الصمت من جديد، وعاد الشيخ يقول:

- «نسيت اللبن والتمر..».

- «لقد شبعت.. شبعت تمامًا.. وسأرحل..».

- «ومتى نراك..».

- «عندما أهاجر..».

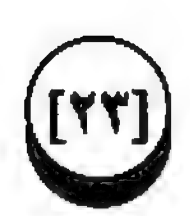
همّ «على» بالقيام، ثم صافح الشيخ ومضى، لكنه سمع الشيخ يقول فى نبرة مؤثرة:

- «قل.. إن شاء الله..».

تمتم «على» وهو يركب جواده:

- «إن شاء الله».

●●●



أخـذ «أبو لؤلؤة» يرغى ويزيد، ويسب زوجـه بأعلى صـوته، فتتوسل إليه أن يخفض من صوته حتى لا يسمعوه الجيران. فيدق الأرض بقـدمه مـحتـجًا، ويكور يده ويهـددها بتـحطيم رأسـهـا، وتكسير عظامها والسبب في ذلك أنه عاد من عـمله دون أن يجد الطعام جاهزًا، وهتف:

- «هذه أولى حـسنات الزواج.. أن تجـد طعـامك جـاهزًا.. لكننى أعود اليوم من عـملى مرهقًا جائعًا، فأجدك ترقدين كالعجل ولا أجد لقمة أتبلغ بها؟..».

وتوقف سـيلان الكلام من فـيـه حـينمـا صـدرت عن «وعـد» تأوهات تنبى عن ألم ممض، ثم قال:

- «دعى هذا الخبث.. أعرف أنك عريقة فيه..».

- «أنت لا تعرف ما بى..».

- «ماذا؟ تتمارضين لأكف عن صراخى وعتابى، لكن قسمًا بالله لن أكست إلا بعد يتجمع هذا القاصى والدانى، وأنثر فضائحك ومخازيك على الملأ. . أنت هنا تنعمين وتأكلين وتشربين وتنامين. . وأنا كالثور الذى يدور فى الساقية صباحًا ومساء لأمدك بما تحتاجين إليه من مال، يالها من مهمة حقيرة، وأنا هنا فى بيتى مجرد خادم. . بل عبد رقيق. . لو كنت أعلم أن الزواج سيجر على هذا البلاء كله، وتلك العبودية المقيتة لدفنت نفسى حيًا، لكن ثقى أننى سوف أتحرر أتفهمين. . ».

وهمست «وعد» وقد تقلصت عضلات وجهها، وتندى جبينها الشاحب بالعرق وأخذت تميل برأسها يمنة ويسرة، وتلوح بيدها مستغيثة. .

- يا «أبو لؤلؤة».

- «ماذا تريدين؟».

قالتها بصوت تبدو فيه نبرة إشفاق:

- «إن شيئًا ما سيحدث».

- «هل ستموتين؟».

- «بل سأضع مولودى الأول الليلة. . إن الانقباضات التى تحدث فى أحشائى مؤلمة جدًا. . تهدد الجبال. . ».

وانبسطت ملامحه، واتسع فمه فى سذاجة، ورقت لهجته حين قال فى قلق:

- «أحقًا ما تقولين؟».

- «إننى أشعر بما يشعر به النسوة عادة فى مثل هذه الأحوال، لقد سمعت بها قبل، وها هى تحدث كما وصفت لى. .» فاقترب منها وقد ارتجف أطرافه وقال:

- «وماذا أفعل؟».

- «هناك امرأة تساعد النساء فى مثل تلك الأمور».

- «المولدة؟».

- «أجل».

- «وأين أبحث عنها. .».

- «سل الجيران».

- «وهل سأتركك وحدك. .».

- «لا تخف. .».

هرول خارجًا، بينما لا حقه صوتها.

- «يؤسفنى أنك جائع».

فقال وهو يفتح الباب:

- «لا تفكرى فى هذا الآن».

كان يهرول كشاب فى العشرين من عمره، لم يعول على الوقار.. ولا الهيبة التى يحرص عليها فى كثير من الأحيان كشاعر يثق فى نفسه وإن لم يثق فيه الناس، ومر بذهنه خاطر لذيذ أبهجه.. سوف تلد «وعد» وستكون له ذرية.. بعد الليلة سيكون فى البيت عضو جديد، صغير لطيف، يملأه بالصراخ الرقيق، والضجيج الحلو، وستكون له يدان حلوتان كأيدى الملائكة، سيبتسم ويضرب برجليه وساعديه، سيكون أخلد قصيدة شعر فى الوجود.. لشد ما يحبه ويتمنى أن يراه، ويحمله بين ذراعيه، ويطبع على وجهه الدقيق قبلة أبوية حانية يودعها كل حبه وشوقه، ترى هل سيكون ذكرًا أن أنثى؟ لا شك أنه سيكون ذكرًا.. وسيكون جميلاً دون منازع، وسوف يغطى على قبح أبيه، وسمنة أمه.. وأى اسم سيختار له، إن عشرات الأسماء لكبار الشعراء تنثال على ذهنه انثيالاً.. أى اسم يفضله.. لابد وأن يكون اسمًا رنانًا حلو الواقع، جميلاً على السمع، لافتًا للنظر.. ولماذا لا تكون بنتًا؟ فليكن.. البنات أكثر رقة وعذوبة وصفواً..

وبعد ساعة أقبل «أبو لؤلؤة» تصحبه امرأة جسور لا تنفعل بصراخ «وعد» ولا ترق لآلامها، ثم جثت إلى جوارها وحاولت

فحصها بطريقة واثقة توحى بالخبرة والكفاءة، ثم وقفت ونظرت إلى «لؤلؤة» دون أن تتكلم، فقال لها فى لهفة:

- «ماذا رأيت؟».

- «ستضع مولودها فى الفجر..».

- «فى الفجر؟».

- «أجل.. أمامها بضع ساعات..».

- «هذا كثير.. إنها تتعذب..».

- «كل بنات حواء يتعرضن لما تتعرض له زوجك..».

وطال بهما الوقت وهما يجلسان إلى جوارها، ومن آن لآخر تصرخ «وعد» بأعلى صوتها مستجدة، فيثب إليها «أبو لؤلؤة» من مقعده، ويمد لها يده، فتتشبث بذراعه وتقبض عليها فى قوة تؤكد شدة ما تعانيه من آلام، ثم تهدأ النوبة، فتغمض عينيها، وتسترخى قليلاً، وكأنها فى سنة من النوم، ويرين الصمت على الجميع، وتعود النوبة من جديد، وكلما مر الوقت قصرت فترات الراحة التى تفصل بين النوبات، وازداد معدل الصرخات.. ولم يستطع «أبو لؤلؤة» أن يقاوم.. فقد انهمرت دموعه، فأخفى وجهه بعيداً، وأخذ يجففها بكمه، لكن المولدة لمحت الدموع وهى تتدفق، فقهقهت ساخرة وقالت:

- «كيف يبكى الرجال؟».

- «إن آلامها لا تطاق، ونحن عاجزون. . لا نستطيع أن نفعل لها شيئًا. . إن وقوفى هكذا دون أن أخفف ما بها من آلام يسبب لى آلامًا ورعبًا بالغين. .».

قالت المولدة فى نبرات هادئة باردة. .

- «لن تفعل ذلك فى الطفل الثانى، سيكون قلبك قد تحجر يا رجل. .».

- «لِمَ لا تسقينها جرعة من أى دواء يسكن آلامها. .».

- «لنتركها تتألم. . إن فى ذلك حكمة بالغة. . الألم والتضحية يجعلان للثمرة مذاقًا شهيًا. . والألم من أجل الآخرين رباط إنسانى عميق لا ينفصم مدى الحياة. .»، فلوح بيده فى احتجاج وقال:

- «تتفلسفين فى موقف رهيب يذهب العقول. .».

- «لأنى رأيت الآلاف يتعذبن. . ورأيت آلاف المخلوقات الصغير تفدُ إلى الوجود. .».

فقال «أبو لؤلؤة»:

- «وأنت؟ ألم تجربى هذه الآلام؟».

فهتفت وكأنها تصفعه :

- «أنا عاقر . . » .

- «لقد أراحك الله . . » .

- «أتعتقد ذلك؟» .

- «ولم لا؟» .

- «إننى أقاسى من الآلام ما لا يعرف إلا الله . . إنه صعب على الإنسان أن يشهد ميلاد آلاف من الأطفال ، دون أن تجود عليه الأقدار بطفل واحد . . لقد ورثت هذه الصناعة من جدتى آه . . وقد تعلم مأساتى على صورتها الحقيقية عندما أخبرك أن زوجى تزوج بأخرى أنجبت له خمسة أطفال . . » .

وصرخت «وعد» من جديد صرخة عالية ، ومن بين دموعها الغزار وأخذت تقول :

- «أشعر أن روحى ستزهق . . أنقذونى . . » .

وحدثت ضجة وصياح متبادل ، المولدة تهتف «عاونينى» و«وعد» تقول «سأموت» .

و«أبو لؤلؤة» يضرع إلى الله ، وقلبه يدق فى عنف ، وأخيراً تلقت المولدة المخلوق الصغير العارى بين يديها ، وقالت وابتسامة مشرقة ترف على ثغرها :

- «أبشرا . . لقد رزقكما الله بغلام جميل . . » .

ونزل الهدوء والسكينة على «وعد» وأغمضت عينيها فى سعادة، وانقطعت صرخاتها، ولم تعد تتحرك ورفت على ثغرها ابتسامة خفيفة، أما «أبو لؤلؤة»، فقد أخذ يتصرف كمن فقد عقله . .

- «أهو غلام حقًا؟ هل أنت متأكدة؟» .

- «كل التأكيد يا رجل . . انظر . . » .

ولم يستطع أن يرى شيئًا . . فقد غمرت عينيه الدموع، ثم قال :

- «وهل هو جميل حقًا؟» .

- «أنت أعمى . . ؟» .

- «أجل . . أجل يا سيدتى . . هو جميل . . وأظنه جائعًا . . »

- «تعقل يا رجل . . » .

- «حسنًا . . لا أعرف ماذا أقول ؟» .

وسادت فترة صمت قالت المولدة بعدها :

- «يمتزج فيه الدم العربى بالدم الفارسى . . » .

فضحك «أبو لؤلؤة» عاليًا وقال :

- «مثل دولتنا الجديدة . . » .

فنظرت إليه المولدة باستغراب وقالت :

- «بماذا تهذى؟» .

- «ارحمى شاعراً فقد عقله . . » .

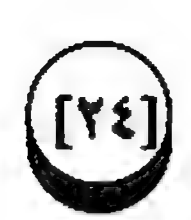
ثم جرى «أبو لؤلؤة» إلى «وعد» ، وطبع على جبينها قبلة حانية ثم همس فى رقة :

- «كيف حالك يا حبيبتى؟» .

قالت باسمة :

- «الحمد لله . . » .

●●●



جلس «أبو لؤلؤة» مرفوع الهامة، عليه سيمات العنجهية والكبرياء، إن ميلاد الطفل قد بث فى نفسه شعوراً بالتعالى والفخر، واعتبر نفسه قد أتى عملاً ضخمًا زائدًا لا يضارعه فيه أحد، وقال وهو يضغط على كل حرف من حروف الكلمات التى ينطق بها:

- «تصوروا.. لقد أنجبت غلامًا..».

قال «على بن أبى أميمة» ساخراً:

- «إنك لم تفعل سوى ما يفعله ملايين البشر فى أنحاء الأرض..».

فلم يعر «أبو لؤلؤة» كلامه التفاتًا وأردف:

- «لقد حاولت مداعبة الطفل، ابتسمت له فابتسم لى..».

قال «على» ضاحكًا:

- «هذا هو الغريب حقًا -كنت أحسبك ممن يخيفون بهم الأطفال. . أيبتسم وهو يرى هذا الوجه؟».

- «وماذا فى وجهى؟ إنه خشن الملامح، لأنه وجه رجل. . »، وهنا قال «حسان»:

- «أنت رجل عظيم يا «أبو لؤلؤة». . ».

فانتفخت أوداجه غرورًا وغمغم:

- «وسيكون ابنى عظيمًا مثلى. . ».

ضرب «على» كفًا بكف وقال:

- «وهنا تكون الطامة الكبرى».

وضج الجميع بالضحك، وأقبلت «ياسمين» فى تلك اللحظة وقدمت لهم أقداح الشاى ثم التفتت إلى «أبى لؤلؤة» قائلة:

- «بلغ تحياتى لـ«وعد». . ولسوف آتى إلى زيارتها إذا لم يمانع مولاى. . لشد ما فرحت من أجلها. . ».

ولا يدرى «على» لماذا راح ينظر إلى وجهها الفاتن فى أسف لكنها لم تكن تنظر إليه، كان كل اهتمامها منصبًا على «حسان بن نافع»، واعتبر «على» ذلك مجرد مصادفة ليس إلا، ولم يخطر بباله أن هناك علاقة ما تربط بين الاثنين، واعترف «على» بينه وبين نفسه أنه يشتهى «ياسمين»، والرغبة تحرقه وأخذ يتذكر ما حدث. . آه. .

الثمرة على الشجرة . . والشجرة شجرته، لكنه لا يستطيع أن يلمس الثمرة برغم جوعته . .

وتركهم «أبو لؤلؤة» وانصرف . .

كذلك فعلت «ياسمين» .

وبقى «على» و«حسان» وحدهما . . كان كل منهما يفكر فى أمر نفسه، تشغله خواطر تختلف عما يجول بنفس الآخر . . تمتم «على» :

- «حسان» .

- «أنا؟» .

- «أجل أنت . . نسيت أن اسمك مستعار، وأن اسم «حسان» كثيرًا ما يكون غريبًا على سمعك . . » .

قال «حسان» باسمًا :

- «هو كذلك بالضبط . . » .

ووجد «على» نفسه يقول :

- «لماذا لا تريحنى وتخبرنى باسمك الحقيقى؟» .

- «حسبت أن أمره لا يهمك . . » .

- «لقد أصبحنا أخوين . . » .

قال «حسان» :

- «اسمى الحقيقى هو «إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك» . . » .

وهب «على» واقفًا وصرخ :

- «أنت؟» .

لكأنما انقضت صاعقة من السماء على رأس «على» ، فأفقدته وعيه ، وذهبت بلبّه ، وأنسته نفسه والمحيطين به ، لقد دارت به الأرض ، وأظلمت الدنيا فى وجهه ولم يعد بقادر على أن يميز شيئًا مما أمامه ، وعاد يصرخ من جديد :

- «أنت» .

قال الغريب وقد شحب وجهه ، وتوجس خيفة :

- «أجل . . أنا «إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك» . . » .

أفاق «على» قليلاً إلى نفسه ، ونظر إليه ، ثم انقض عليه كوحش مفترس ، وقبض على عنقه وهتف :

- «لا تنطق بهذا الاسم مرة أخرى» .

فحاول الغريب جاهداً أن يخلص نفسه من أصابه «على» المتصلبة على عنقه ، وأخذ يقول فى دهشة :

- «لماذا تفعل ذلك؟! لِمَ كل هذا؟!» .

وأخذ «على» يضغط على أسنانه من الغيظ ويقول:

- «ألا أتعرف نفسك؟».

- «أعرف؟».

- «أنت قاتل أبى..».

- «أنا؟!».

- «أجل.. أنت الذى قتلته غيلة وغدراً فى منطقة «الحيرة» كان يأتى إلى هناك سراً ليبث الدعوة للعباسسين، وكشف الأمويون أمره، وكنت أنت الأداة القذرة التى استعملوها فى ارتكاب الجريمة البشعة.. أنت الذى أبحث عنه منذ شهور.. قضيت الليالى الطويلة أحلم بالثأر منك لأنك قتلت أبى.. وقتلته غيلة.. أخرج لأبحث عنك وأنت فى بيتى، ويعذبنى الأرق بسببك وأنت تنعم فى قصرى! وأنتقل باحثًا عنك فى «الحيرة» و«الكوفة» و«مرو»، وفى السجون والمحافل والأسواق! وأنت هنا فى قصرى.. قل لماذا فعلت ذلك؟

لماذا قتلته؟ لماذا تخدعنى وتعيش فى قصرى؟ أهو تمادٍ فى السخرية بى؟

أطرق «إبراهيم بن سليمان» فى حيرة، لم يستطع أن ينكر ما

ارتكبه من حماقة؟ ولم يكن بقادر على أن ينفى عن نفسه نوازع الخوف التى أطبقت عليه.

ها هو يهرب من الموت، ويأتى إلى مكان أمين.. فإذا بالموت يطلبه فى المكان الذى ظن فيه الأمان والحماية، إنه قدر مكتوب لا مفر منه..

وقال «على» وهو يشهق باكيًا:

- «لماذا سفكت دم الشيخ البرىء المسكين؟».

- «إنها إرادة الله..».

- «بل إرادة القسوة والظلم التى أعمت عيونكم يا رجال بنى أمية.. تحتمون فى الإرادة الإلهية وقد دارت عليكم الدوائر! ولو انتصرتم لما اكتفيتم بما فعلتم، بل لتماديتم فى سفك الدماء..».

وقال «على» وأمسك بخناقه وقال:

- «تكلم.. ما جزاء القاتل؟».

- «الموت..».

- «ها أنت تصدر الحكم على نفسك يا «إبراهيم بن سليمان» ألا أكون ظالمًا حينما أقتص منك لأبى، وأفصل رأسك عن جسدك..؟».

وأدرك «إبراهيم» خطورة الموقف، لقد بذل ما بذل لينجو

بحياته، وها هو يوشك أن يفقدها بعد هذا العناء كله، وبعد أن ابتسمت له الحياة ونعم بروعة الأمن، وجمال الحب، وتغنى للمستقبل.. فهل يستسلم؟

مستحيل.. الحياة جميلة، وتستحق الحفاظ عليها، ثم إنه لم يفقد الأمل كلية، ألا يمكن أن يرق قلب «على»، ويعفو عنه؟

قال «إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك» وهو يرمى بآخر سهم فى جعبته:

- «لكنك أعطيتنى عهداً..».

- «أى عهد يا قاتل أبى؟».

- «عهد الأخوة والأمان، والمحافظة على حياتى حتى لو كنت اضطررت إلى التضحية بحياتك..».

وقف «على» جامداً، دم أبيه يصرخ به كى يثأر وعهد الأمان يهتف له ليصفح.. وهو يتأرجح بين عاطفتين، إحداهما فى أقصى اليسار، والأخرى فى أقصى اليمين، وهو بينهما يحترق بالعذاب والحيرة، وذكريات ليالى الأرق والقلق تعاوده، وفى وسط هذه الكلمات المهملة التى تصبغ نفسه بالسواد، يشرق من ضمير الغيب وجه يعرفه جيداً، وجه الشيخ «زين الدين» الذى قال له فى آخر مرة قابله فيها «فلتهاجر.. الهجرة انتقال من حال إلى حال.. الهجرة خلاص..» وتذكر كلمات كثيرة:

«الراحمون يرحمهم الله . . ومن عفا وأصلح فأجره على الله . . . العفو من شيم الكرام . . . » .

وصرخ «على» مرة أخرى :

- «ودم أبى؟» .

وصرخ «إبراهيم بن سليمان» :

- «والعهد؟» .

- «ودم أبى لم يكن ماءً . . » .

- «والعهد لم يكن كلمات . . » .

- «بل سأقتلك يا قاتل . . » .

- «سأقدم لك عنقى . . » .

- «لن يرق قلبى لضراعتك . . » .

- «إن أمت اليوم أو غدًا فكله سيَّان . . » .

- «لابد من قتلك . . » .

قال «إبراهيم» بصوت راعش حزين :

- «لكنك ستندم . . » .

- «كيف؟» .

فأخذ «إبراهيم» يقرأ:

- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ [النحل: ٩١]. . ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

ويعود الشيخ «زين الدين» يشرق بوجهه الصالح الندى ذى اللحية البيضاء، ويهوم فى مخيلته، وينظر إليه نظرات ذات معنى، نظرات صامتة لكنها تشى بآلاف الأحاديث، ويفيق «على» إلى نفسه فيرى أهل البيت وقد تجمهروا من حولهما، جواريه وعبيده، وخدمه وزوجه «لمياء» وابنه «حاتم»، ويجرى «حاتم الصغير» وهو يشهد ما يدور بينهما، ويندفع إلى «إبراهيم بن سليمان» فيلتقفه هذا الآخر بين ذراعيه، فيشيح «على» بوجهه بعيداً، ثم يخطو نحو ضيفه خطوات ثابتة، وينتزع ابنه من بين ذراعيه، فيهتف الصغير:

- «لماذا تفعل ذلك يا أبى؟».

فيقول «على» بصوت خفيض حزين:

- «لأنه قاتل جدك يا ولدى. .».

ويصيح الصبى:

- «مستحيل. . مستحيل. . أنا أحبه. .».

فلا يعير كلام صبيه التفاتًا، ثم يتوسط الجميع ويرفع هامته، ويبدو عليه أنه يقاوم انفعالات جياشة صاخبة، ويقول:

- «يا «إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك» . . لقد عفوت عنك، ولن أغدر بعهدى، ولكنى لا أريدك أن تبقى فى قصرى لحظة واحدة بعد الآن . . الباب مفتوح، والطريق أمام . . إن بقاءك أمام نظرى أمر لا أستطيعه . . اذهب على الفور ولا ترنى وجهك بعد اليوم» .

وتلفت «إبراهيم» حواليه، وأخذ يجوس بنظراته الدامعة بين الواقفين، حتى وقعت عيناه عليها . . كانت «ياسمين» تنزوى فى ناحية وعيناها تسكبان الدموع الغزار . . ورمقها فى حسرة وندم . . وكاد ينسى نفسه وهو يركز نظراته عليها . . لكن صوت «على» انبعث قويًا :

- «ارحل» .

قال «إبراهيم» وهو يجر ساقيه جرًا :

- «لن أنسى لك الفضل ما حييت . . إن وفاءك بعهدك جعلنى أتضاءل أمام نفسى، وتتمثل لى فعلتى الشنعاء كأقبح جريمة فى الوجود . . » .

وقطع الصمت أنينًا يمزق نياط القلوب، والتفت الجميع صوب «ياسمين» التى أخذ جسدها يهتز تحت وطأة شهقاتها المتلاحقة، وقال «على» :

- «ماذا جرى لك؟» .

كانت يائسة محطمة، ومن أعماق قلبها الجريح هتفت :

- «لقد أحببته . . أحببته يا مولاى بكل ذرة من روحى وكيانى . . تعاهدنا على الزواج بعد أن يدفع ثمنى . . لم أعد أطيق الحياة بعده . . » .

ولم يكن «على» فى حاجة إلى مزيد من الكوارث والمفاجآت ، ولعله شعر بألم حاد وهو يرى الفتاة التى اشتراها بماله . . وتعلق بها قلبه تعلقًا غريبًا لا يدرى كيف يراها ، وهى تعترف بحبها لسواه ، لقاتل أبيه ، وابتسم «على» فى مرارة قائلاً :

- «إلى هذا الحد؟» .

- «إنها الحقيقة الأليمة يا سيدى . . » .

- «إذن فلتذهبى معه . . » .

- «إننى أستحق سخريتك . . » .

فاقترب منها ، وأمسك بذراعها فى ضيق ، ودفعها نحو باب القصر وهو يقول :

- «قلت اذهبى معه . . » .

ومضت «ياسمين» هى الأخرى .

وتنفست «لمياء» الصعداء . .

وأخذ «ميمون» العبد الحبشى يصر على أسنانه فى غيظ . . وقال الصبى «حاتم» :

- «ألن يعود إلينا مرة ثانية؟» .

لكنه لم يسمع جوابًا لسؤاله الحائر . .

وبعد ساعة، كان «على» راقدًا فى سريره، والظلام يطبق على المكان، وأنغام حزينة تزجيها أوراق الأشجار فى بستان القصر الكبير، والرايات السوداء تخفق فوق القصر دون أن يصيبها كلال . .

●●●

وفى اليوم التالى جاء خادم الشيخ «عبد الله»، ووقف بباب القصر خاشعًا ذليلاً . .

وأقبلت «لمياء» عندما علمت بمقدمه، وأمسكت بكمه قائلة :

- «كيف حال أبى؟ هل خرج من سجنه . .» .

ولمّا لم يجب صرخت :

- «تكلم . .» .

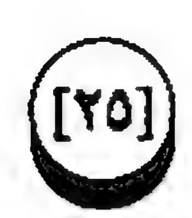
فشهق الخادم باكيًا، وأخذ يتمتم :

- «لقد مات» .

وضحك «على» ضحكة عصبية لا تصدر عن عاقل، وأخذ يقول :

«قتل الأمويون أبى . . وقتل العباسيون صهرى . . وأنا!!! ها . . ها . . . قتلتُ نفسى» .

●●●



تروى كتب التاريخ وتؤكد أنه لما أفضت الخلافة -إلى بنى العباس- اختفى جميع رجال بنى أمية، وكان منهم «إبراهيم بن سليمان»، فشفع له عند «السفاح» -الخليفة- بعض خواصه، فأعطاه الأمان ثم أحله مجلسه، وأكرم مثواه . .

وقال له «السفاح» ذات يوم:

- «يا «إبراهيم» . . حدثنى عن أغرب ما مر بك أيام اختفائك» .

فقال:

- «كنت مختفيًا فى «الحيرة» بمنزل مشرف على الصحراء، فبينما كنت على ظهر ذلك البيت، أبصرت أعلامًا سوداء، قد خرجت من «الكوفة» تريد الحيرة، فأوجست منها خيفة، إذ حسبتها تقصدنى فخرجت من الدار مسرعًا متنكرًا حتى أتيت «الكوفة» وأنا لا أعرف فيها من اختفى عنده، فبقيت متحيرًا فى أمرى، فنظرت

وإذا أنا بباب كبير ، فدخلته ، فرأيت فى الرحبة رجلاً وسيمًا لطيف الهيئة ، نظيف البزة ، فقال لى :

- «من أنت وما حاجتك؟ . . » .

قلت : - «رجل خائف على دمه جاء يستجير بك . . » .

ثم يمضى الرواة فى سردهم للحادثة ، إلى أن تنتهى بالعفو عن «إبراهيم بن سليمان» وأخذه الجارية التى يحبها معه . . ثم تقول كتب التاريخ أن «إبراهيم بن سليمان» قال فى آخر حديثه مع الخليفة :

- «فهذه الحادثة أغرب ما مر بى ، وهذا الرجل هو أكرم من رأيت وسمعت عنه بعدك يا أمير المؤمنين . . » .

لكن كتب التاريخ دائمًا . . لا تقول كل شىء . .

نجيب الكيلانى

●●●

تذييل

إننى أشعر بانجذاب لا يقاوم نحو تاريخ أمتنا العريقة، فلا أقل من القراءة فيه والتعمق فى أحداثه، ورسم صورة نفسية لإنسانه .

وأجدنى أعيش أحداثه وتجاربه بشغف غريب .

والتاريخ قد يكون قديمًا، لكن الإنسان هو الإنسان من حيث غرائزه وانفعالاته وأشواقه الروحية، فقد يكون الإنسان مختلفًا، أو متحضرًا، وقد يكون متعلمًا أو جاهلاً، وقد يكون ملحدًا أو مؤمنًا، لكنه دائمًا مدفوع لأنه يحب ويكره، ويثور ويهدأ، ويتعصب ويتساهل، ويطرب للجمال، وينفر من القبح، ويستمتع حتى يغرق فى المتعة، ويزهد حتى يكاد ينسى الدنيا وما فيها، ويقبل على الشر حتى الثمالة شيطانًا مريدًا، ويهوى إلى الخير وكأنه ملاك رحيم .

الإنسان هو الإنسان، وإن تغيرت الأزياء التى يتزى بها، أو اختلفت وسائل المواصلات، أو زادت حصيلته من العلم

والمعرفة . . وتاريخنا مليء بالأحداث الدرامية ، الأحداث التى تهز المشاعر ، وتثير الوجدان والفكر ، منذ أن حمل النبى العربى محمد بن عبد الله رسالته الخالدة فى عرض الصحراء ، ومنذ أن خرج بدعوته من العالمين ، واصطدم بالقوى الصلبة المتمكنة فى الروم وفارس . . إلى يومنا هذا .

فهو تاريخ غنى بالنماذج الإنسانية المميزة ، وبالأحداث القوية المثيرة ، وبالمثل العليا الرائعة التى غيرت وجه الحياة ، والتى أقامت حضارة ضخمة ، وأمة كبرى تنتشر فى مشارق الأرض ومغاربها ، وإيمانى بأنها أقوى وأقوم دعوة إلهية حملت النور والسعادة والعدالة إلى الأرض إيمان لا يتزعزع ، ولا يرقى إليه ذرة من شك . .

لعل هذا أهم ما يشدنى إلى التاريخ ، ويربطنى به أوثق ارتباط ، ولا يعنى ذلك أننى أعيش فى أجيال مضت ، فأترسم سلوكها وقيمها ، وأنعزل عن واقع أعانيه ، وإنما هى نظرة كلية تربط الماضى بالحاضر وتستشرف آفاق المستقبل ، ليس انعزالاً إذن ، وإنما هو ثورة على التقوقع ، وضيق الأفق والنظرة القصيرة للحياة والأحياء . .

ويشدنى إلى التاريخ أكثر فترات التحول الخطيرة ، أو ما نسميها بفترات الانتقال هذه الأوقات أقوى نبضًا وحساسية وإثارة عن غيرها من الأوقات .

ولقد درج علماء التاريخ على تسجيل الأحداث السياسية

والحربية، وسير العظماء وكبريات المشاكل، وهذا أقصى ما يستطيعونه.

لكن ليس هذا كل شيء..

إنهم يتجاهلون الجانب النفسى، يهملون الإنسان الفرد بقلقه وعذابه ومشاكله، ويتحدثون حديثًا عامًا عن الكتل البشرية، والتحركات الجماعية..

ومن هنا يأتى دور الفنان مع التاريخ..

فالفنان لا يؤلف كتبًا للتاريخ، ولا يحلل أحداثه الكبرى تحليلاً عامًا جماعيًا منعزلاً عن النفس الإنسانية للفرد...

الفنان يتناول الإنسان الفرد، ويناجيه ويحاوره، ويبحث عن أحلامه وآماله في تلك الفترات، ويعرض مشاكله وانعكاس ذلك على سلوكه، وارتباط هذا كله بالمجتمع الكبير.

الفنان إذن مؤرخ نفسى إن صح هذا التعبير...

ولقد أردت أن أقوم بهذا الدور؛ دور الفنان - في تلك الفترة العصيبة التى تقع بين انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية..

وكنت صادقًا مع نفسي ومع التاريخ، وأنا أتناول أشخاصه..

إنّ حبى للتاريخ الإسلامى لم يمنعنى من تصوير أخطاء الرجال-

المسلمين طبعًا - فى ذلك الوقت، وأنا دائمًا أفرق بين أخطاء الدين ورجال الدين، وأعتقد دائمًا أن الخطأ يقع على الرجال، وأن الدعوة الإسلامية الطاهرة بريئة من تلك الأخطاء، لقد انهار الأمويون- كما يؤكد المؤرخون - لأنهم أقاموا حاجزًا ضخمًا بينهم وبين جماهير المسلمين، وتركوا الأمر لوزرائهم وقوادهم، وكان هؤلاء الوزراء والأمراء يخفون الحقيقة عن الخلفاء، ويعطونهم فى الغالب - صورة زائفة للموقف، بل إن هؤلاء الوزراء كانوا يدفعون الخلفاء إلى حياة التراخي والمجون والنعيم، كى يستأثروا هم بالأمر، ويحققوا أطماعهم الشخصية، وبهذا أصبح الحاكم العادل الذي يمثل الإرادة الشعبية، وليس هو النموذج الأصيل الذى يمثل القيم الإسلامية التى افترضتها الشريعة فى الحاكم . .

وكان من العسير على النفس الإنسانية أن تعترف بعجزها ونقصها أو ترضى بالتنازل عن الميزات والسلطة التى تستمتع بها، إلى أن اكتسحها طوفان الثورة الدامية التى حمل لواءها العباسيون، كان النظام يحمل فى ثناياه عناصر الفساد والفناء فى الوقت نفسه، وهكذا انهار النظام؛ لأن الجماهير كانت تحلم بالتغيير، وبحياة الحرية والسعادة، وبالصورة المثالية التى رسمها الرسول ﷺ . . . وليس معنى ذلك أن خلفاء بنى أمية كانوا جميعًا على هذا المنوال القاسي، فقد ظهر من بينهم خلفاء أتقياء، حاولوا أن يصلحوا ما

فسد، وأن يعودوا بأنفسهم وبالناس إلى الطريق السوى، ونذكر منهم على سبيل المثال الخليفة العادل «عمر بن عبد العزيز» . .

وقامت الثورة العباسية وسط قاتم من المؤامرات والعنف والحروب الرهيبة، والصراعات الحزبية الدامية، والنعرات الشعوبية المدمرة، التي هددت وحده الأمة. ونالت من مبادئ الإسلام الحنيف التى تحارب فوارق الجنس واللون، وتعتبر المسلمين سواسية كأسنان المشط، ولا تفرق بين أعجمى وعربى وحبشى . . إلا بالتقوى، ولم يكن انتصار الثورة نهاية للمآسى والصراعات الدامية، فالدولة الوليدة تريد أن تثبت دعائمها، وتقيم بناءها، وتحمى نفسها ورجالها من كيد الكائدين، وعبث العابثين، ومن ثم لجأت إلى العنف الذي اصطلى بنارة الأمويون المنهزمون والمتحزبون الطامعون. وفى هذا الجو العاصف الدامى دارات أحداث قصتنا «الرايات السوداء» . . .

وبالطبع لم تكن هذه الفترة القلقة الدامية المملوءة بشتى ألوان المتناقضات والصراعات تعبيرًا صادقًا عن النظام «الإسلامى» السليم فى الحكم والسياسة والحرب والحريات العامة، وكانت هذه الثورة فى هذا الوقت، أشبه ما تكون «بالنوبة العصيبة» التى تنتاب الرجل السليم، فتجعله يتصرف بلا وعى، ويأتى من الكلمات والحركات بكل شاذ وغريب، وليس من المنطقى فى شيء أن نصدر

أحكامنا على شخص من خلال «النوبة العصبية» التى داهمته في لحظة من لحظات الاعتلال والانحراف.

وليس أدل على ما تقول من أن الدولة العباسية بعد أن استقرت وتثبتت دعائمها، فتحت أبوابها للعلم والمعرفة، وامتزجت بالحضارات العريقة، وأنجبت عدداً من العلماء، والمفكرين، والفلاسفة، والشعراء، ووضعت أسس العلوم النظرية والتجريبية، وحملت مشعل الدعوة الإسلامية إلى آفاق جديدة، فأنارتها بالعلم والمعرفة والفنون والقيم الإنسانية الخالدة، لفترة طويلة من الزمن.

●●●

ولقد كانت تشغلنى طوال الفترة التى كتبت فيها هذه القصة مشكلة رئيسية ألا وهى مشكلة (الحرية).

«حرية الإنسان» ذلك الفرد الذي يحمل في داخله عالمًا ضخمًا كبيراً واسع الأرجاء، مختلف الأجواء. . .

والحرية فى هذه القصة ذات شطرين:

- مشكلة الحرية بالنسبة للعبيد والإماء، يحاول بعض المفكرين الطعن على الإسلام بسبب مشكلة الرقيق، والدارس لهذه المشكلة فى الإسلام يجدها إلى زوال، ويجد مطاعن الأعداء لا تقوم على دراسة سليمة.

- ومشكلة الحرية بالنسبة للرجل الحر . . أو المفروض أنه حر . .

كانت الجارية «ياسمين» هى صرخة الاحتجاج الدامية فى وجه ذلك المجتمع إنها «أمة» اشتراها سيدها بماله، وهذا ليس بمبرر كافيًا لأن تعيش محرومة من التعبير عن وجودها وانفعالها، وليس بمانع لها من أن تحب من تشاء وأن تنجب الأطفال.

وأن تصرخ وتحتج، وترفض - ولو بينها وبين نفسها- مما هدد آدميتها ومشاعرها وأمانيها وأحلامها . . .

وكان «على بن أبى أميمة» أنموذجًا للإنسان الحر، والذى له من أمجاده وماله وظروفه الاجتماعية، ما يتيح له فرصة الحرية كاملة، لكنه لم يكن حرًا.

كان يهوي جاريته، لكن ظروفًا خاصة وقفت دون تحقيق رغباته، وما أقدم عليه من أعمال مع جاريته، لم يكن يعنى الحرية، بقدر ما يعنى التمرد والانصياع لأوضاع اجتماعية مرهفة، لقد شارك جاريته فى فراشها، لكنه كان يأتيها كاللص ويتستر، وكأنه لا يقل خوفًا وعبودية من جاريته التى اشتراها بماله . .

وكان «سليمان بن إبراهيم»، يعيش كالسجين، حيث لا قضبان ولا أسوار، ولعل «الشيخ عبد الله» هو الأنموذج الذى ارتضيه تعبيرًا عن الحرية الحقيقية، لقد فكر ورجع إلى أصول دينه، ثم اتخذ موقفًا، والتزمه ولم يخف من سيوف العباسيين، وهو يطلق كلمة

الحق وتحمل المسئولية كاملة خارج السجن وداخله حتى لفظ أنفاسه الأخيرة دون أن يتزعزع إيمانه، أو يرهب مصيره الحالك. . .

وكان الشيخ «زين الدين» صورة صارخة من صور الاحتجاج على المجتمع المضطرب الذي اختلطت فيه القيم، وارتكبت الحماقات، وديست الكرامة الدينية والشرف، ربما كان احتجاجًا من النوع السلبى، لكن مثل هذا الاحتجاج لا يضيع هباء- إلى جانب ذلك الإشعاع الروحى الذى كان يفيض منه، ويبهر كل من يلتقى به. .

وكان «أبو لؤلؤة» مثال الفنان البائس المغرور العارى من الموهبة، والذى يشعر دائمًا أنه مظلوم، وأن الناس لا يقدرونه حق قدره، ولِمَ لا يفعل ذلك؟ وهو يرى أقوامًا يرتفعون لا لكفاءتهم الشخصية، وإنما لمجرد كونهم، وصوليين- وأنصارًا للحكم الجديد، ويجد رجالاً أصلاء يذوبون فى ظلام السجن وقسوته لمجرد كونهم أعداء لفلسفة الحكم الجديد ومنطقه؟ .

وأنا لا ألتمس العذر «لأبى لؤلؤة» وأمثاله، وإنما بالتعبية أيضًا على العصر القلق الذى عاش فيه. .

وكانت «لمياء» امرأة صافية ودود متسامحة أقرب ما تكون إلى أبيها. .

●●●

وكانت المشكلة الثانية التى تشغل بالى أثناء هذه الرواية هى مشكلة «الانتماء».

لم يكن انتماء فرد من الأفراد إلى الطائفة العباسية أو الأموية بقادر على أن يحل مأساه «الانتماء» كما يسمونها. . لأنه سيكون حلاً ظاهريًا لا يرقى إلى مستوى الروح القلقة المعذبة التى ينعكس عليها قلق العصر وعذابه. .

وواضح من سطور القصة أن كل فرد كان يحاول أن ينتمى إلى معنى يبعث فى قلبه السكينة، ويزرع فى روحه الاطمئنان.

هذا قليل من كثير أردت التعبير عنه فى هذه القصة، لكنى أقف عند هذا الحد تاركًا للقارئ أولاً أن يستخلص منها ما يشاء، وللنقاد ثانيًا أن يفسروا كيف شاءوا.

إن خلاص هذه الأمة فى عودتها إلى مبادئ دينها الحنيف. . وبقاؤها رهين باستمساكها بهذه المبادئ، واعتصامها بوحدتها، ودفاعها عن حرية أفرادها لآخر رمق وإخلاصها فى معالجة قضاياها، وصدقها فى التعبير عن نفسها وعن تاريخها. . .

●●●

وقبل أن أترك هذا المكان، أقول قد يسأل سائل عن مدى صحة أحداث هذه القصة من الوجهة التاريخية، وجوابى على هذا

التساؤل كما قلت: إن التاريخ لا يقول كل شيء. . وأقول أيضًا - كما قال أحد الأدباء الغربيين:

«ما التاريخ إلا مشجب أعلّق عليه لوحاتي..»؛ لأن كتب التاريخ لم تكتب عن هذه الحادثة إلا نصف صفحة من القطع الكبير. . .

وإني لأترك القلم، وفي نفسي شيء. . شيء مرير من النقاد العرب الذين - برغم كفاءتهم واستعدادهم الشخصي - يخلدون إلى الصمت، ولست أدري هل هذا الصمت ضرب من الاحتجاج وعدم الاعتراف بالجهود الفنية؟ أم هو لون من الصبر والترقب؟ وعلى أية حال فإن الواجب يقتضينا أن نمضي في الطريق حتى يخرج النقاد عن صمتهم، أو ينتهي صبرهم.

وإلى اللقاء. . .

دكتور

نجيب الكيلاني

مساكن أبو زعبل

●●●

كانت هذه الرواية مفقودة، وعثرت عليها، ولم يسبق نشرها . . فأرجو طبعها ونشرها لتخرج للنور وفاءً لزوجى الأديب الراحل «نجيب الكيلانى» ولكم منى جزيل الشكر والامتنان . . والله من وراء القصد.

كريمة شاهين

حرم الدكتور

نجيب الكيلاني

دبى

●●●